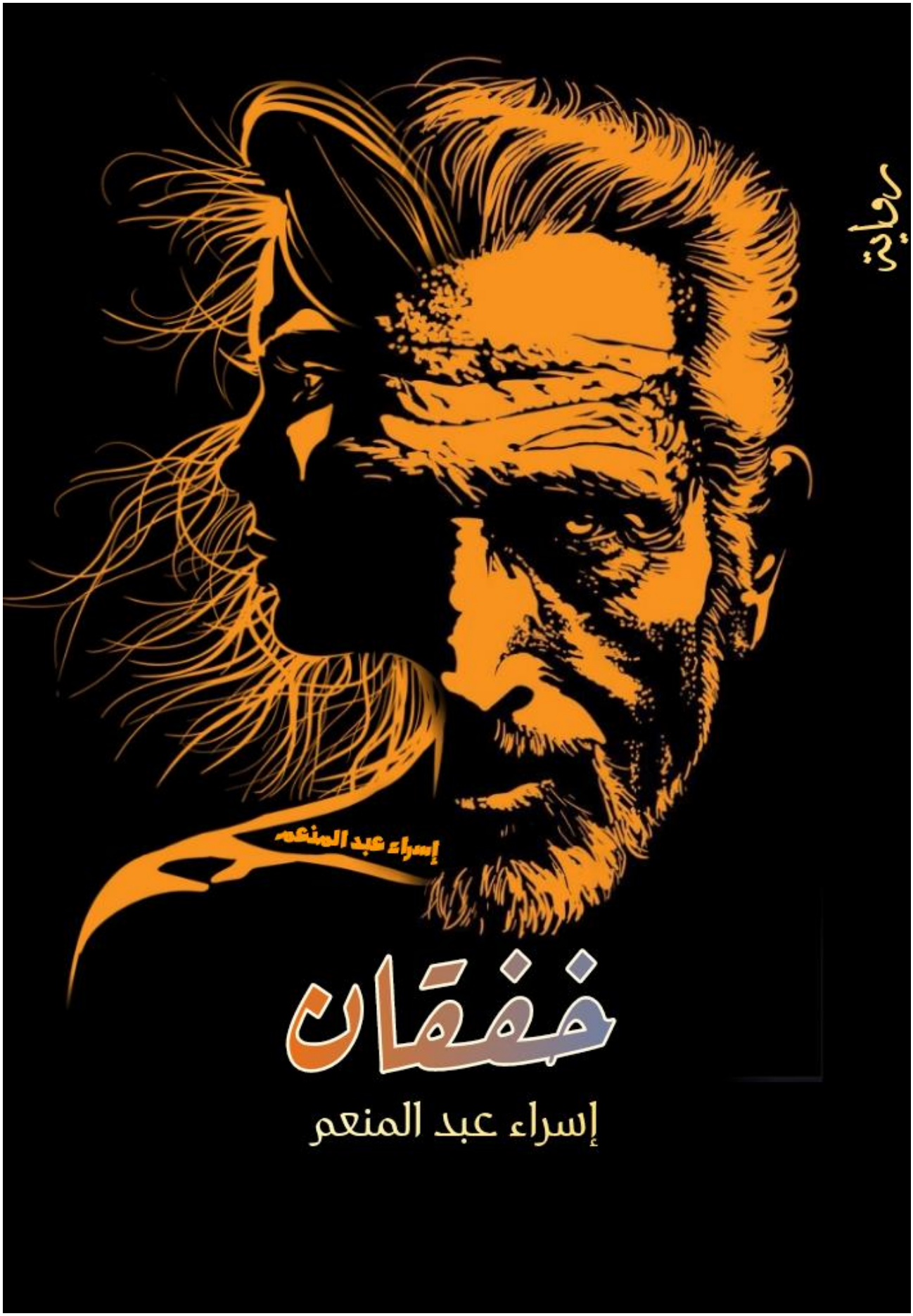
روايات
إسراء عبد المنعم
خفقان
إسراء عبد المنعم

اقتباس

خطوة.. اثنتان.. ثلاث.

ضربتها أشعة الشمس الفارة عبر حفرة صغيرة بالحائط مستقرة على جانب وجهها. عين لامعة مضرمة والأخرى باهتة مظلمة. قبضت على حديدتين من قفصها وأسندت جبينها عليهما. لم ترمش وكأن الطعنة أودت بها واستنزفت دماءها. لا جدوى من البكاء وإحساسها مفقود. انفرجت شفتاها بابتسامة مريبة. تباشيرها تنم على تعابير مخيفة. أجّت قسماتها ولسانها يهمس في حسيس أفعى تبخ سما متأهبة للمعركة الكبرى التي لن تقبل أقل من النصر بها:

- "مهران".

انقبض قلبه وتوقف عن المسير. تلفت بجسده رافعا حدقتيه في تعجب وغرابة مزامنة مع رفعها حدقتيها هي الأخرى. كلٌ يتطلع للفراغ بمشاعر متباينة. المُشاع بينهما توهُّم كل منهما الآخر أمامه. انفرج ثغرها فانكمش خاصته وقد أشرف القدر بلعبته.

صفحة الكاتبة على الفيس بوك للتواصل معها والإعلان عن كل جديد:

https://www.facebook.com/WriterEsraaAbdElmoneim/

البداية

منذ بضع ليالٍ:

أشرقت الكرة الذهبية بعدما غضفت السماء، واقتلع السحاب الأسود لونها الأزرق البهي معرضا عن الصفاء، لهج بالظلام، يلقي أثره بأنحاء القرية الخضراء وما تحويه من ألوان بهية منافية ما ببطونها. تخللت الأشعة الذهبية الطرقات الغير مستوية بفتاتها وقطع الطوب الصغير تصيب ما تصيبه بها.

ذهب متناثر داعب جبهة العجوز المنحني أرضا يجمع الخيرات ويضعها بجلبابه المتسخ. يؤجر بمال بخس من مالك القرية فيهرع لعائلته الصغيرة فرحا بما نال يبتاع القليل من الطعام وقد تعودوا على كل ما هو ضئيل. جبينه المتغضن مَجمَع الأتربة بعدما تفنن الدهر برسم تجعدات بها. لم تسلم عيناه من الزمن فقد شق سيفه الطريق لأطراف عينيه البندقية وشفتيه في خطوط متوازية. ليس وحده بل كافة من حوله يظهر عليهم الشقاء. كلٌ التهى بجمع أكبر قدر من الخيرات ليثير إعجاب رئيسهم عله يرفق بحالهم فيزيدهم أجرا.

اعتدل واقفا بعدما كان منحنيا يملس على ظهره محاولا الحفاظ على استقامته رغم تقوسه. كفه الحر يقبض على طرف جلبابه المرفوع لمعدته المنتفخة حتى لا يسقط ما جمعه. إذا هوت حبة واحدة عائدة لمسكنها فسينقض المزارعون لانتشالها تزيد رزقهم رزقا.

محا الأتربة العالقة بالعرق الغزير ماسحا وجهه عل تلك الدوامات الهائجة داخل عقله تزول فيذهب معها الإعياء على استحياء. زفر بحرقة وقد أضاع دقائق من وقته كان يستطيع جمع بضع ثمرات بها.

قبل أن يكمل عمله استمع لصوت ضئيل صغير كصاحبته. فجع عندما رأى صاحبة النبرة الرقيقة وانتابه الفزع منتفضا ساهيا عما بجعبته. سقطت الثمار أرضا فتبارز من حوله في التقاط ما تقدر أيديهم حمله من الثمار والسعادة ارتسمت عليهم. ينتشلون تعب غيرهم بلا حزن. لقي ضميرهم حتفه بعدما علمتهم الحياة عدم التفكير سوى بأنفسهم ليستطيعوا الفوز بمعاركها القاتلة التي لا ترحم أحدا.

لم يهتم بهم بل ركض ناحية الصغيرة وعيناه تمسح المكان وجلا من أن يظهر فجأة. قبض على ذراعها وصاح أثناء ركضه معها:

- أخبرتك ألا تتركي المنزل واستخدمت كل الأساليب معك أيتها الحمقاء العنيدة فتضربين كلماتي عرض الحائط وتخرجين، سيكون عقابك تلك المرة وخيما لتتعلمي سماع كلمة والدك.

انكمشت ملامح الصغيرة ذات الثلاث عشرة عاما خيفة من تهديد والدها الصارم. حاولت الدفاع عن حالها مهرولة معه. لا تخطو خطوة سوى وتسقط فيجذبها في غلظة.

- اختنقت من المنزل. فكرت أن ألهو قليلا مع صديقاتي ورأيتك من بعيد تعمل فقلت أسلم عليك أبي لكن صدقني لن أعيدها مرة أخرى ولتبتر قدمي إن فعلتها.

حاولت أن تستشف تباشير وجهه إن كان غاضبا أم سامحها لكن زمجرته أعلمتها أن الليلة لن تمر سوى بجلدات عنيفة على جلدها الرقيق. نحبت خوفا لما ستلاقيه.

أخرجها من تفكير عقلها المرتجف فزعا كسائر جسدها حديثه الصارم يشوبه نبرة وعيد:

- سألقنك درسا لن يترك عقلك الفارغ ومخيلتك الواسعة لتتأدبي ، ثم كيف خرجتي وقد نبهت على والدتك ألا تتركك أبدا.

تلهفت بالإجابة خوفا أن تطال والدتها الضرارة:

- أقسم أبى أنها لا تعلم فقد كانت منشغلة بتحميم أختي خلف المنزل بعدما انقطعت المياه عنا.

رأسه لا تكف عن الدوران بكل مكان خوفا أن يطلّ بظلماته.
سوف تكون نهايتها بالتأكيد وستنهار محاولاته طيلة سنواته الفائتة باجتنان ابنتيه الكبرى والصغرى ذات العشرة أعوام عن ناظريه كي لا تطالهما يده الملوثة بدماء الصغيرات.. وقد كان.

صعق محله وانتفض جسده يستمع لضربات أربعة أرجل تدب الأرض في ضراوة كالسوط الهاوي على جسد الجواد.

هرع بأقصى سرعته وقد حمل صغيرته يحتضنها جزعا، بضعة مترات ويصل لآخر الحقل حيث الأمان وسيدبر حاله بأي طريق ضيق بين البيوت الصغيرة يختبئ به حتى يضمر.

اندست الصغيرة بأحضانه تستمع لصوت الخيل الذي لا ينجلي عن القرية فصاحبه يحوم كل ليلة وسوطه يلتقى بجسد أسود لا حيلة له الحديث أو الاعتراض فيُصعق ويحمر جسده حد النزيف. صاحبه لا يرأف به بل يترك جواده يئن وحده . تعلم الدهماء أنه مسلوب الرحمة، لم ينتشلها الله بل هو من اقتلعها بنفسه ليشاهد عرض إيلامه لمن حوله من بشر وحيوانات باستمتاع دون تكدر.

كم هو مرعب ذاك الفرعون!

"فرعون"

ترك فراشه متجهم الوجه فقد فارق الصغيرات لشهر كامل وتلك أول مرة تحدث! لم يخلُ فراشه يوما من جسد صغير يتلاعب به كما يشاء دون خجل من شناعة فعلته. لطالما تلذذ برؤية جسد مستعبد لا حيلة له. يعشق صرخاتهم الطفولية ورجائهم بكلماتهم البريئة أن يدعهم وشأنهم.

علّمه والده أن ما يرغبه سينالله دون نزاع أو اعتراض ومن يأبى فمصيره نصل يتراقص مع عظام صدره أو سوط يتلاعب مع جلد بدنه.

خطا صوب المرحاض ويده تحك فروة رأسه حيث شعره الخفيف الأسود بفعل الصبغات لتتوارى خلفها الخمسون خريفا، وإن أصلح شعره السَبْط فماذا عن تجعداته الشديدة ووجهه الدميم بحاجبين كثيفين يكادان يتعانقان لفرط تلاقيهما واعوجاجهما لطول عبسه وغضبه؟!

توقف عن المسير حينما قابلته صورة ضخمة على الحائط خُطت بعناية ودقة لعجوز يجلس على مقعد ضخم يرتكز كفه ذو البقع البيضاء والشام السوداء على هوارة متشققة.

طال تعمقه بصورة والده وأجّ ثغره بابتسامة ظافرة. ادّكر عندما بلغ الرابعة عشر وأوجبه والده التلبّث بغرفته مع شقيقه الوحيد "فارس" ذي السادسة عشر.

تربّع أعلى المقعد بخيلاء منزويا عمن كنّ له الضغينة دوما فلطالما آثر والده أخاه عليه. سمح ل"قاسم" بالالتحاق للمدرسة في حين ضنّ بالتعليم على "فرعون" الذي مضغه العمل بالحقول بين المزارعين العاملين لديهم تحت أقدامهم.

أغشاهم الصمت هنيهة حتى باشر الوالد بالحديث لابنه "فرعون" فتوّصل لما شغله.

ابتسم ساخرا عندما أدرى سبب تلقيبه ب"فرعون". كي يكون اسما على مسمى فرعونا لا يداهمه أحدا.

هزأ من أخيه "فارس" الذي زجر والده في شكيمة أن الله قدير على كل شيء وكما أنأى فرعون ذاته فما بالك بمن صال اسمه فقط.

أطبق ثغره ملتذا إزاء عجيج والده يصاحبها هبّته وعصاه الضخمة طوّقت بدن أخيه الأحمق يلقنه درسا لسلاطته. نفض يديه عن جسد شقيقه مجلجل الصوت وقد أبد بفراشه في هياج.

بتلك الليلة بصر الكثير وأهمها أن تعلُّم "فارس" ما كان سوى ذريعة ليكون بمكانة مرموقة يذوّد عن العائلة فيقيها من جرائمها. وكم شنّفت كلماته أسماعه! شقيقه ليس إلا آلة منقادة لخدمة عائلته.

كان "فارس" غير آبه بما يدور حوله فاقتصر حضوره على تدليك جروحه. بينما عينا الصقر خاصة "فرعون" تخترق عقل والده ليعلم مكنونهما فينهل منه ليصبح نسخة طبق الأصل عنه. وها هو يستخدمها عندما شبّ فمقدمة أعماله كانت اجتثاث والده وشقيقه!

مرت السنون وكبرا فصارا من أعتى الرجال أحدهما بعقله والآخر بجسده. انكبّ "فارس" على خلق عائلة له فزُفّت إليه "أمينة" المختارة من قبل والده لغُلبها ضامنا صمتها! هاله جاذبيتها وطيبة قلبها فأنشأ معها عائلة سعيدة ، بينما "فرعون" لم يلق سوى رفض والده القاطع تكوينه لعائلة حتى لا ينشغل عنه ويترك المهام الملقاة عليه.

ربا حقده فقاده الأمر للقتل. لم يرمش وهو يغمد النصل بصدر والده النائم ثم بشقيقه على مرأى ومسمع من زوجته الصارخة. وصلا إلى الرمق الأخير بعدما ضمن نقل ملكية كل شيء إليه بتوقيع الابن وبصمة الأب. خيّرهما بين الأملاك أو النجاة وليتهم علموا أنه لم يخيّرهم بينهما بل بين الأولوية في الحدوث منهما.

غدت ليلة ظلماء على الجميع إلا هو. باتت إمبراطورية الشامي بقبضته دون مشاركة أحد معه. ابتاع الضمائر فدُفن والده وأخوه بيده التي لم تجف من دمائهما بعد ظنّ من العامة أن الفاعل لص وغمر معهما حقهما بالقصاص. لم تقدر "أمينة" على نطق الحقيقة إثر صوتها المنتشَل جراء صدمتها لعدة أيام انتهت بجعلها قعيدة. وكأنه إن بقي صوتها فستطق الاعتراف بعدما روّع أمومتها على أبنائها الثلاث؟! أعمل النظر بالأرملة وأولادها حتى غلبه الشيطان. قرر جعلهم أحياء. ليس أناة أو ندما على ما فعله بل ليلازمهم من يضنيهم.

الأطفال يشبهون والدهم كثيرا وسيهنأ إن بغى وأبصر التثأثؤ بهم وكأن فتك والدهم لم يشفع عنده شيئا.

أتم الأربعين وأبرم معها أول زيجاته. ولج قصره بفتاة معوز من القرية اختتمت العشرين من عمرها وهُيّأت أن تصير وسيلة لنزعته. صعُب عليها البقاء فلَبَدها مكروه حد الموت. عاد لوحشته حتى بصر صغيرة لم تبلغ الخامسة عشر. بيّت أمره عليها فنالها. كانت غضارته معها استثنائية. رُدّ شبابه فسها عن عمره المتجاوز الأربعين.

مراهقة وراء أخرى حتى تزوج ما يفوق العشر. ينلن نصيبهن فتضيق عليهن الحياة. يلقين حتفهن ولمّا تحيا إحداهن يسأم هو منها فيطلقها ولا يكتف بل يلفظها عن القرية بعدما يزجر عائلتها فيشرّدهم وينآهم عن سبل الرزق أجمع.

تغرّب عن دوامة الذكريات واستحم متأهب ليوم آخر من التجوال بالقرية ورؤية المزارعين مقيدين بأغلال غير مرئية لا حول لهم ولا قوة.

تأزر بجلباب باهظ وبيده هوارة من أودى بحياته ويحمل دمه. لم يغفل عن وضع نصله بجيبه والسوط بالآخر. دك الدرج بقدميه الغليظتين كغلاظة وجهه فوجدها على مقعدها الذي يلازمها وقد ابتاعه بعدما تلقى ثمنه بجلد ابنها الواقف جوارها تتشبث به شقيقته وكل أحنى رأسه في تلبّث لحضوره.

ابتسامة خافتة داعبت شفتيه يسير في مُكنة قبالة الطاولة الحاملة كل ما لذ وطاب فشرع بتناول الفطور .

مرت دقائق طويلة حتى نفض كفيه ونهض محمحما بجُشرة يلتقط عصاه:

- تناولوا الفطور قبل فوات موعده.

حال تلفته دون كلمات ابنة شقيقه "فريال".

"فريال"

انزويت إلى الصمت لحين انتهائه من الأكل. لن أسهو لحظة حادثته قبلا وهو منهمك بتناول طعامه فثار عليّ وجسدي يلقى من الضربات ما تطاله عصاه.

زمجرات بطني عالية تتضور جوعا. غلبني النعاس أمس دون تناول وجبة العشاء فانتهى وقتها وتمزقت فرصتي. الوجبات لها مواعيدها من لا ينتظم بها لن يأته غيرها. ها أنا ذا أترقبه بفارغ الصبر حتى يحين شبعه. يتخم هو لنشرع نحن. كما أتأهب لأستسمحه تأخري عن موعد عودتي فحصة زائدة قد أضيفت اليوم بمدرستي وإلا قضيت بقية الليلة وسط البرد القارص خارجا والحشرات التي لا ترحم مثله.

تنهدت متلمسة شفتي لفرط الجوع. لاح بذاكرتي شقيقي "مهران" ذو مقام والدي. ألحيت بأوج طفولتي على رغبتي في التعلم والالتحاق بالمدرسة. رغم انزعاقه إلا أن عيني المتوسلة غلبت كل شيء فقرر استئذان الملقب بعمنا.

لازلت أتذكر مجاراته فنالت السعادة أخيرا نصيبها على وجهنا سرعان ما زالت بإكماله شرطه أن يجلد أخي خمسين جلدة كلما مررت بمرحلة تعليمية جديدة وتزيد مائة وخمسين لو أراد هو وشقيقنا "قاسم" استكمال تعليمهما.

لعنت رغبتي رغم تمسكنا بها، لا أفقه مبرره أن يتلقى أخي "مهران" الثمن وحده. قد يكون وجهه المشابه وجه أبي حد التماثل ما جعله يستشيط غضبا وحقدا كلما رآه.

تخم أخيرا من الطعام فسارعت الحديث قبل أن ينأى وعيني لا تفارق الأرض كما أكّد دوما:

- عمي! أستأذنك العودة متأخرة ساعة فلدي حصة إضافية اليوم.

طال صمت استباحت غصاتي قطعه حتى أصابني الذهول من رده:

- حسن.. لا مانع ، أتعلمين لم؟

- لم؟

- اليوم ذكرى وفاة أبيكِ وجدك وهل هناك ما هو أجذل من ذلك؟!

اغتممت واستعبرت والدتي وقد نزحت شهيتها فحرّكت عجلات مقعدها صوب الغرفة السفلية وانصرف بنظراته المتشفية. لو أنني لم أشافهه لما تعرضت للخسف أو ذكّرت والدتي باليوم المشؤوم . جفلت من كلمات "مهران" الكظيم وقد خرج عن صمته وتزاحمت الكلمات تخرج دفعة واحدة بأنفاس ثائرة.

"مهران"

كالعادة أقف ذليلا بلا حيلة أتحين إنهائه التناول لنبدأ نحن. أكظم غيظي كي لا ينفجر فيضعضع من حولي شاملة والدتي وشقيقتي المتبقيتين لي بتلك الحياة. أهاب التفوه حرفا فيقهرني بهما ليقينه مدى ارتيابي عليهما وحبى لهما. يكفي شقيقي العزير "قاسم" والذي يكبرني بعام واحد عندما قرر منذ ثلاث سنوات عدم الخضوع للذل والهوان. أطلق ما بجوفه وجوفنا كافة. قذف ما بقلبه فانعكس محطما لبه. أبلغه مدى مقتنا تجاهه. أخبره برغبته بقتله لولا أموالنا التي تحت سطوته لفررنا مهاجرين إياه. أذاع ما وجِلنا التفوه به ، وما كانت النتيجة سوى الجلد.

دوما ما تعرضنا للتنكيل وكان عزاؤنا انحساره داخل حدود القصر. لكن أخي كان النقيض تماما معه. لم يكتف بإهانته أمامنا بل لفظه خارج القصر وتبعه بعدها بدقائق على حصانه حاملا سوطه. مثّل به قبالة أهالي القرية يوسعه ضربا ويسبه أقذر السباب. شبهه بالنساء المولولين حينما يلقى أزواجهم مصرعهم بينما هو فقد لقي الحتف كرامته.

تقيدنا بحديقة القصر المغلقة بوابتها. دوّت صيحاتنا نرجوه العفو وخارت قوانا. منذ ذلك الحين ولم نر شقيقنا يوما. التهم الوجل قلوبنا من إصابته مكروها لكن خادمة عجوز علمت من أهالي القرية أنه ما إن أفاق حتى ركض فرأوه يترك القرية ولم نسمع عنه شيئا بعدها.

بركان مضرم كلما ادّكرت ما حدث. نهشني القلق أفكر به وعما يفعله إن كان به الرمق!

اكتفيت أنا ووالدتي وشقيقتي بمعرفة محيصه ولم نسأل مرة أخرى خيفة تلقي فاجعة موته رغم يقيننا أنه حي يرزق. حينها زاد الروْع أضعافا والكوابيس لا تحل عني. أراه متوغلا بمخيلتي حتى انكففت عن دراستي بالمرحلة الإعدادية بعد رحيل أخي حيطة كي لا أهمل والدتي. فمن مثله لا يتنبأ أحد بأفعاله وخطواته القادمة.

يلوك آخر لقيمة بطريقة ضاعفت تقززي برؤياه. تأهب للانصراف فور انتهائه وجلبابه تزفه للخارج. ارتعدت أوصالي حينما بادرت شقيقتي بالحديث تأذنه التأخر. الغبية لطالما كلّفتها أن توكلني وسيطا بينهما إن رغبت شيئا وكعادتها تعرض عن أمري خشية علي من بطشه .

ركد ارتجاجي لمّا وافق بهدوء حتى تهدجت أنفاسي وشكوكي باتت يقينا عندما أكمل ضاحكا مذكرا إيانا بيوم نتناساه عل بعض الوجع يزول. تلاقت أصابعي بقبضة شاب بلغ الثامنة عشر متمنيا لو تشق طريقها لوجهه المقزز.

خرج واختلت والدتي كعادتها في ترح. صرنا كالغرابى لفرط الألم وانعزالها عنا. لكننا نعذرها وكافتنا بنفس القنينة. أشفق عليها فعائلتها تخلت عنها بعدما رُمّلت خوفا من بطش اللعين فغدت وحيدة بائسة.

أخفقت في كظم غيظي فعلا صوتي بسبة وغلّظت القول:

- أمقته.

اقتربت شقيقتي لتربت على كتفي محاولة تصبيري على ما نحن به فأزحت يدها وخطوت لغرفتي. لا أريد أن تمسسها مضرة إزاء غضبي كثور لا حتى أحبائه.

ارتفع صوت دك قدم حصانه للأرض وهو يطوف بين أراضي القرية الزراعية والتي يملكها جميعها. عاين الفلاحين في زهو لما رسّخه بهم. كل يحاول اقتلاع قدر المستطاع من المحصول. لا يعطهم أجرا ثابتا بل الكِرَاء قدر ما جمعوا.

كم يعشق اختلاسهم نظرات لمن حولهم يأملون سرقة بعض الثمار. ومن يهرول لكل جزء يأخذ قدر الإمكان فصاروا محاربين بلا مؤونة. ألجم جواده بمكان نائٍ نسبيا يترصد البعض حتى أغضى عينه ثوان ساهيا. اهتز رأسه يستشعر خطوات خافتة فتفرق جفناه يبصر جسدا صغيرا يعدو صوب أحد العاملين.

تفحص الجسد يكسوه جلباب واسع طويل لا يناسب عمرها فرفعته لتتمكن الركض وظهر قدماها ناصعتا البياض تحت أشعة الشمس الذهبية. ثارت غرائزه وكفه يدلك صدره بينما عينا الصقر خاصته تهرول مع ركضها حتى سكنت ما إن مثلت أمام مزارع يتضح أنه والدها.

ابتسم في ظفر من الانزعاق المحتل قسماته يتلفت حوله خشية على ابنته. صهل الجواد كمن يئن حينما غشيه مالكه بالسوط فانطلق بأقصى سرعته.

تمعن النظر بها تحتضن والدها المهرول تجاه البيوت الطينية في حيلة لإنجاد ابنته من براثنه لكن هيهات. وقعت بمن يمضغ الصغيرات ثم يلقيهن جثة هامدة.

دنا منهما فتمكّث أمامهما حائلا بينهما وبين النجاة. أعمل النظر بمفاتنها البِكر تارة وشفتاه انفرجت كاشفة عن صخور صفراء متراصة. طال الصمت فحركّت رأسها خفية تطالع صاحب الظل أمامها. فجعت لرؤيتها العجوز المهاب من قبل الجميع.

كم أنذرها والداها ألا يراها يوما! كغيرهما من الآباء يقيدون بناتهم داخل بيوتهم ويحرّمون عليهم الخروج. ازدردت ريقها مرتعدة فنظرته الرعّابة وابتسامته الشنيعة تقتلع روحها.

ارتدت ملابسها الرثة قليلا وعدلت حجابها الطويل تتطلع للمرآة عيناها تمشط جسدها حسرة عليه فكم كانت جميلة يشهد الجميع نبلها رغم صغر عمرها لكن قبضته أبدلتها فباتت بالية.

ترقرقت بلآلئ افترشت وجنتها الرقيقة التي لا تحتمل حفر الدموع بها وكأنها. جففت عبراتها بآلية تضبط أعصابها. لا وقت للغمة والذكريات. يلزمها التعجيل يكفي أن مدرستها قاصية عن قريتها بمدينة نائية.

عيب استحضار مدرستها دون حضور الطالبات هناك مع عجرفتهن الدائمة. ازدراؤهم تجاهها يحاوطها لكن ما باليد حيلة وقد أبي أن يقدم لها بمدرسة بالقرية المجاورة بل قرر إتباعها بأخرى بعيدة ليراها مرهقة الجسد تسير على قدميها الصغيرتين ذهابا وإيابا فيمتع مقلتيه بذلك المشهد المحبب لقلبه عفوا بل عقله فمن مثله لا يملك قلبا.

أمسكت حقيبتها التي حيكتها والدتها كبقية ملابسها وأخذت الطريق ركضا للخارج خوفا أن يعود الفرعون فيجدها ويقسم عدم خروجها.

تأكل الممر حتى ارتدت متأوهة بعدما ارتطمت بجسد صلب غلبه الحمرة.

افترش بدنه الفراش كما افترشت الأفكار السوداء عقله كعادتها. يرغب في إبادته فيخلص العالم منه.

نفرت عروق قبضة يده الزرقاء كما فعلت الدعة. شخص بعيدا ببصره يحاول ضبط انفعالاته فلحقه الإخفاق سريعا. انتفض صوب الحائط يلكمه وقد كان أحن عليه من دنياه فعفت عنه تحتضن رأسه برحابة وصلابة.

أرْتَجَ جفنيه يستدعي التركيز على بقعة نور صغيرة بأعماقه لكن قابله الظلام فقط. الماضي غزاه دون رأفة يصيبه بمقتل غير عابئ.

طرقت والدته باله فاحتدم منتفضا يترك غرفته متجها لخاصتها.

دفع الباب دون استئذان ونَعَر مختنقا يشير بإصبعه للخارج عيناه تكاد تقفز من فرط جحوظهما:

- لم؟ لم الهزال؟ أعشقت الذل؟ أزهدتِ السكينة؟ أنسيتي ما فعله بوالدي؟

تهدج وقوله غلبه الوهن:

- لِم بقيتي؟

تكتّلت بالضغوط فحركت مقعدها صوبه تصيح رافعة كفيها أمامه:

- أنظر جيدا لهما.. هل تجد حيلة؟ يد خالية.. أتخيلت حالتي وأنا أضمكم مرتعبة عودته؟ أشعرتَ بكسرة قلبي لمّا ناجيت عائلتي فأغلقوا الهاتف نافرين عني جزعا.

غصّت بالبكاء فسترت أنين تباشيرها عن مرآه بكفيها. خَزِر "مهران" لمأثمه. يشهد وهنها. ليس بيدها سوى النواح على أطلال وأيام أخّاذة قضتها مع والده فسرقها الزمن وقذفها سنوات من اللَأْواء.

خوي حتى من المشاعر فلم يقدر مواساتها. فر كفريسة وجدت صيّادها فتهرول لغَوْث حالها حتى ولو وقعت بمأزق آخر.

خرج من الغرفة بعدما ذكّر ساكنتها بالماضي الأليم ثم هجرها تلعق جراحها علها تشفى.

اصطدم بأخته فتأوهت ألما. وضع يده على جبينها يدلكها مترقرقا يتأملها وكأنه يرى والدته التي رضّ لبها.

لم يقدر الاعتذار من أمه فتأسف من شبيهتها!

- الفرج قريب أخي صدقني الله معنا ولن يتركنا.

محا دموعه يلتقط عملة بخس قدرها من جيبه وابتسامة طفيفة تألقت على ثغره:

- خذي صغيرتي استريحي اليوم من السير.

انبسطت أساريرها وأشارت له أن يهبط. مال بجزعه فقبلت وجنته وركضت للخارج مسرعة غير واعية لمن تطلع لأثرها ويده يرفع بها ياقة قميصه الذي ورثه عن والده يخفي بها جرح غائر تحت رقبته.

لم يجني راحتها مجانا بل قايضها بجرح جديد خُطّ على بدنه واتسخ به جسده.

قصد غرفته حيث عزلته يريح جسده راغبا النوم باغيا زوال الألم ومعها أفكاره الشيطانية بقتله لكن سيظل الذعر على عائلته يتملكه فيتقهقر عن قراره ويتجلّد عل الفرج قريب كما تفوهت شقيقته.

- ألن تعرّفني على صغيرتك يا رجل؟! لِم العجلة بالسير؟!

تهكّم بقوله فشخص قليل الحيلة بصره بعيدا حتى استقرت على الأرض رهبة مجيبا ونبرته متهدجة:

- إنها "بلقيس" سيدي. لكنها مريضة قليلا لذلك أسرع للبيت.

همهم "فرعون" وارتكز بصره عليها يجاريه قائلا:

- حقا مريضة؟!

- أقسم سيدي. أأجرؤ الكذب عليك؟

مهما بذل لإرضائه فلا مفر مما أزمع. راقت له من يتضح حرص والدها على إكنانها مقدرا جمالها رغم حداثتها.

- تعجبني كلماتك.. ما رأيك أن أحضر غدا بمنزلك؟

اسود وجهه كما أظلم الكون حوله. أدرك أن ابنته هلكت وسيقع ما أوجسه منذ ولادتها حتى قرر يوما وأدها لكن مشاعره الأبوية تقهقرت فظن أنه يقدر العمل طويلا ليوفر مالا يبتاع به بيتا بقرية أخرى لكن مرت السنون ومر العمر حتى أصبحت عروسا صغيرة ولم يجمع سوى قوت يومه ليقع ما هابه.

اعتبر في قهر وقد سبق السيف العزم وجلاد القرية سوف يغدو جلاد ابنته.

توالت الدموع ونظر لابنته المندسة بأحضانه خشية ثم عاود التطلع إليه مذعنا:

- نشرف بحضورك سيدي.

تحرك فرعون بجواده بعدما رمق جسد الفتاة نظرة أخيرة متفحصة. تنحى متلمسا شفتيه بلسانه الأصفر كأسنانه وقد وجد فريسة الجديدة بعد طول انتظار.

- أمي! متى ستعود "بلقيس"؟

فاهت المليحة ذات العشرة أعوام تحتضن عروستها البالية وخلفها والدتها تصنع جديلة مرتبة بشعر ابنتها السبْط لكن عينيها شاخصة بعيدا في فَرَق على ابنتها الكبرى.

أعادت الصغيرة "بتول" سؤالها فتنبهت والدتها مجيبة:

- فليسترنا الله صغيرتي. يراودني شعور سيء.

لم تعِ كلماتها. أطرقت تتمكّث أوبة شقيقتها ليتسلين معا. دندنت بما سمعته من مذياع جارتها وصديقتها. داخلها شوق أن يوفي والدها بوعده ويبتاع واحدا حين يصلح حالهم.

كانت السيدة وابنتها ساهيتين واحدة بمخاوفها وأخرى بأحلامها حتى حلّت المصيبة والباب يُفتح في بربرية. دلف رجل البيت يرافقه الذعر والهياج يد تقيّد "بلقيس" والأخرى تغالظها فعنّت صائحة.

أزاحت الأم صغيرتها لتنقذ كبراها تدفع يد زوجها عنها. طالتها بعض الضربات التي لم تحتملها فما بالكم بالضئيلة أمامها!

استطاعت أخيرا تحرير ابنتها من براثنه. ابتدأ السبّ على كل من بالبيت ثم أجهش بالبكاء. هزلت نبرته لفرط اللُغُوب والوجل الذي غزاه.

أنهى سبّه فخر أرضا باكيا. افترشت "سكينة" الأرض جوار زوجها "عبد القادر" وتفاقم الروْع لحالته. استوضحت عما بدر من ابنتها لينقض عليها بتلك الطريقة الشنيعة.

اجتاح ارتعاشه وأنينه مع تكرار سؤالها أنحاء البيت الضيق بينما الأختان استترتا خلف باب غرفتهما يراقبان ما يحدث. الكبرى تنوح وجعا وشقيقتها تربت على ذراعها مواسية بينما أوصالها ارتعدت خشية أن يحين الدور عليها.

- لِم تركتها تخرج؟ حدث ما تهيّبنا وقوعه.

- ماذا تقصد؟

- رآها الفرعون وسيزورنا بالغد.

لم يكد يكمل القول حتى خارت قواها مولولة وكفاها يدكان وجنتيها تارة ورأسها تارة فابنتها هالكة لا محالة.

فزعت الفتاتان محلهما. لطالما سمعا ذلك الاسم الذي تخر له الأجساد صرعى.. "فرعون".

تحركت بمقعدها عاجزة صوب المنضدة تلتقط كتاب الله تأسر عويلها متذكرة زوجها وحنانه فمقتله وكان الختام جَهَامة ابنها لكن له كل العذر. ما مر به ليس بالقليل.

استكان كفها المرتجف أعلى قلبها تبتهل بقلب أم أرهقها الألم لفراق ولدها وفرحتها الأولى:

- أين أنت "قاسم"؟ لِم تركتنا يا ولدي؟

انتحبت في خوْر تقرأ القرآن الكريم ومعه يهتز جسدها لا تمر ثانية إلا وتتجدد عبراتها .

عانقت حقيبتها في حَمِيَّة. قليل ما تثبت قدماها بلا خطىً فتحفظ حيويتها كاملة ليوم مديد من الدراسة.

هرولت لداخل المدرسة بعدما حيّت الحارس مدركة بداية الطابور. تخبطّت بجسد صلب فلعنت داخلها للصدمات المتتالية.

انعقد لسانها وفُض فوها من الحديث ما إن أبصرت معلمها الشاب يمثل أمامها ساهما كعادته!

انكمشت قسماتها جراء تعقّب نظراته لها في اندلاس منذ ارتقت لمرحلتها الثانوية وبات معلم الإنجليزية لفصلها حتى أصبحت نظراته واضحة مرئية فتستحي كثيرا منها.

ثارت الحروف وانبثقت متخبطة:

- أوه أعتذر أستاذي لم أنتبه.

انجلت بسمته فزخرت قسماتها بالارتباك وخطت يمنة صوب طابورها وهو يقتفي أثرها.

"عصام"

أهيم على وجهي وأطوف بكل رقعة أفتّش عمن تثير تساؤلاتي منذ رأيتها بأول يوم لها في المدرسة والذي كان الأول لي بمهنة التدريس بعدما تخرجت.

دوما ما أجد عيني تغوص ببحور عينيها الناعسة ولساني حُرِّم عليه الحديث.

لا أفقه ماهية ذلك، قد تكون الحجة براءتها أو الشفقة عليها من الوحدة. يؤسفني انعزالها والفقر البادي على ملابسها الرثة.
طارحت إحدى المعلمات أن تصاحبها فوافقت على مضض.
علمت فيما بعد تعاملها السيء معها ضاربة طلبي عرض الحائط لأعقد النية ألا أحرج حالي أو أطلب الاعتناء بها واضعا عاتقها عليّ.

وكّلتها بضع مهام لأبثها الشعور بتضارعها مع مثيلاتها من الطالبات فأكلّفها بجمع الكراسات لأصححها كما عينتها رائدة للفصل.

لم يدم طويلا فقد علمتُ مضاعفة المضايقات المنهالة عليها تسحق جسدها فتنحت عن ريادتها بعدما كادت ترقص فرحا للحصول عليها وتفاقم أسفى وحزني.

قد يوجد ما أجهله يدفعني لذلك لكن كل ما يهمني رغبتي بجعلها إنسانة سوية لا تستشعر نقصا بين زميلاتها فهي بمرحلة خطرة لا يستهان بها.

أنقّب عنها وقد تأخرت عن موعد قدومها. استقر بصري على البوابة عندما وجدت الحارس يبتسم فتيقنت وصولها. براءتها ووجهها النبيل رغم تأزرها بقماش عتيق تجبر حُسن الحارس ذا الوجه العبوس على العلنية.

أبصرت من حولي وقد التهوا بالإذاعة المدرسية فخطوتُ قبالتها ومعدتي منقبضة. وكأني شللت عن التوقف فاصطدمت بها.

تراجعت متأوهة فهيمنتُ على بسمتي قدر المستطاع ولا أعلم إن أجدت إخفاءها أم كُشف أمري.

شنفت سمعي باعتذارها الرقيق قبل أن تفر لمنتصف المدرسة حيث طابورها وكالعادة التزمتْ آخر الصف متنحية عمن يتهامسون هازئين بها فغدت تعسة.

ضرعت الشمس فداعبته فكرة جهنمية أن يوافيهم اليوم بغتة حتى يتسنى له أن يتحرى ما بالبيت بتلقائيته ورؤية أهله دون ترتيب أو موعد. لا يأمنهم فقد يلعب إبليس بعقولهم عازمين الفرار فألجم حصانه وطار بمهب الريح.

تقصّى الأراضي الزراعية وأَفِد بيتهم بعدما كلّف أحدهم اتباع الرجل الحامل زوجته المستقبلية ليُعلمه مسكنه.

طغت عليه بسمة جانبية مدركا عويلهم على حظهم الذي أوقعهم تحت رحمته بينما ينتشي هو.

مرت ثوان طويلة بعدما طرق الباب حتى فُتح وطل منه "عبد القادر" بنظرات واهنة تحولت لأخرى جاحظة مرتعبة مما هو قادم.

- عيب عليك يا رجل؟ انتظرت ترحيبا أحر!

علقت غصته واختنقت قسماته قائلا:

- آسف سيدي، صدمت من حضورك اليوم ليس إلا.

ثبّت هوارته بمنتصف صدر المرتعد قبالته يزيحه موسعا الطريق أمام قدميه الغليظتين. ولج محمحما تسلك عيناه سبيلهما بكل إنش بالبيت العتيق فاستقرتا على امرأة أعجزها الشقاء تنوح في وجل.

أشاح وجهه عنها فشنف إلى أريكة متشققة تآكلت أقدامها ولبِد بها.

أسكن هوارته جواره وأوبأ إلى الماثلين ثم إلى الأرض. مرت هنيهة امتثلا فيها لأمره حتى افترشا الأرض تحت قدمه.

أرضاه المشهد فرفع رأسه متطلعا للباب المغلق بعينين ثاقبة:

- أين هي؟

فاه فتعثرت الحروف بطريقها واختلجت:

- إنها نائمة.

- أيقظها أو.. فعلت بنفسي.

أغذّ السير على الفور لغرفة ابنتيه وأترس الباب. أمّم صوب "بلقيس" يحتضنها وأجهش بالبكاء. دموعه لوّثت ابنته وأرعشت قلبها.

ابتعد مقبلا وجنتها بأسى وعجز:

- أعتذر صغيرتي تذكري دوما أننا نحبك.

ارتعدت الفتاة وشعور سيء يراودها فاختنقت نبرتها:

- ما بك أبي؟ لِم تبكي؟! أقسم لن أكررها.

- صغيرتي الجميلة! ستصبحين عروسا.

ومضت عينا "بتول" وافترت بأعلى صوتها. قيّد "عبد القادر" ضحكاتها تهيبا أن تصير فريسة عقب أختها:

- "بتول" صغيرتي إياكِ والحديث أو الخروج من الغرفة لحين أخبرك.

امتثلت لأمره فعاود النظر لابنته المبتسمة هائمة.

سوف تصبح عروسا نضرة تضع الحمرة على شفتيها الوردية إلحاقا بثياب باهظة عوضا عن البالية. عميت مصيرها المحتوم لا تبالي سوى بما تراه عند زواج أحد بالقرية. استسغت الزيجة منذ أن أصغت لقصص حب ألقاها مذياع جارتهم. يطوف بها الخيال لآفاق وفارس أحلامها يمتطي جواده الأبيض ينتشلها من الفقر جاهلة انقلاب كل شيء رأسا على عقب فما أتاها سوى جلاد على حصانه الأسود.

أمسك يد ابنته الكبرى تتردى فيه أنات مما هي مقدمة عليه. فات الأوان لأي فعل أو محاولة إنقاذ.

رافقها للخارج بعدما نبّه على الأخرى التكتّم.

وَبَصت عيناه لمّا مثلت أمامه مع والدها متبسمة في براءة باتت مغرية له.

صعد الدرج مسرعا يخبئ رغيف خبز محملا بقطع صغيرة من الجبن اختلسها وسط انشغال الخادمات بتحضير الغداء قبل أن يأتي فيصب كامل حفيظته عليهن.

أكل الدرجات توجسا حضوره مبكرا. بلغ أخيرا مقصده فابتسم بسكينة يطرق الباب ثلاث مرات قبل أن يدلف مغلقا إياه خلفه.

بحث عنها حتى وجدها بدُبُر الغرفة منزوية تتلو القرآن الكريم. غلبتها الشهقات فتهشم لبه لمأثمه.

زلف محرجا حتى مثل قبالتها. لاحظت "أمينة" ظلا أمامها فعلا بصرها. استدمعت لمّا رأته وعاتبته في انثمام.

لم يطق التجلد. هبط إزاءها وطوّقها معتذرا يقبل يدها آسفا الحمق الذي فاهه على عهد ألا يكررها .

- لا تعيدها بني. قلبي مكدوم على شقيقك لا ينقصه فراقك.

هجرته المسرّات بأوبة ذكرى أخيه. حرّر الطعام القليل من جعبته قائلا:

- تفضلي أمي. لم تأكلي منذ الصباح.

- "فريال"! يا الله لقد انصرفت دون تناول فطورها.

- كيف نسيت ذلك؟! بإذن الله سأحاول التقاط ما يكفيها لحين عودتها.

أومأت "أمينة" وداخلها خوف على ابنتها ذات الجسد الهزيل. تتمنى لو يمر اليوم دون وبال وتعود لها سالمة مطمئنة.

شرع "مهران" في تقطيع الخبز يُطعم والدته فتبادله والصبوة أكفتهم بالقليل.

تتكهّن متعجلة ختام يومها الدراسي لتعود للقصر محاولة استعطاف الخادمات إعطائها ولو الماء.

افترّت لمّا لوَى أخوها الطعام عن الخادمات لحين عودتها كعادته. ترجو أن يفعل اليوم.

أصابها دوار ومعدتها هاجت محتجة تبغي ما تلتئم به يملأ فراغها.

شهقة خافتة صدرت ما إن أبصرته يدلف للفصل مسكِنا حقيبته جواره.

جففت عرق جبهتها وقد أنستها إهانة عمها أن لديها حصة لغة إنجليزية اليوم فغفلت عن كتابه. كم هو صارم تجاه ذلك الموضوع فيصل به الأمر للصراخ والطرد دوما!

تحرى مجلسها فأبصرها بدُبُر الفصل ثم طالبهن إخراج حاجيتهم فرأى إحداهن لم تمتثل لأمره.

تآزف الخطو متسائلا فأجابت في رَجَب بنسيانها له.

لم يتفوه بحرف بل أوبأ إلى الباب فأطرقت محرجة ولبّت الأمر تجنبا الصياح.

حال دون حديثه هتاف أخرى محتجة:

- " فريال" لم تحضر كتابها أيضا.

جفل ملتفتا ل"فريال" وهوي بجُب الحيرة. برت لكن ما باليد حيلة. وجب طردها وإلا زخرت المضايقات المنهالة عليها. سوف يظنون أن الأستاذ الشاب معجب بها ويختصها بمعاملة دونا عن بقية الطالبات أو أنه عنصري منحاز للبعض ضد الآخر.

دمي وجهها وائتلفت لآلئها لمّا فتنت الفتاة عليها. تمنت ألا يحرجها لكن حدث ما نافى رغبتها.

- اخرجي "فريال"!

نهضت تقطع سبيلها للخارج في وهن. تفاقم الدوار والأرض تميل بها. لم تتمالك حالها فتردّت أرضا فاقدة وعيها.

آن فزعا صوبها وصاح بالطالبات ألا يتحركن أثناء حملها. هرول بها لغرفة المعلمين القلق ينهش أمعاءه أنفاسه متعثرة كخطواته .

جذبها عنوة من طوق والدها إلى أحضانه هو. ربت على ظهرها بلمسات فقدت براءتها. استباحت نظراته جسدها الغض بينما هي ترتعش كالعصفور. شنفت عنها أحلامها عندما علمت أن ذلك العجوز من سيغدو زوجها.

تنحى إبصارها يتطلع لوالديها المتحجرين مكانهما اغتماما على فقيدتهما. قذف وريقات مالية تجاههما آمرا:

- تسلمتم مهرها وانتهت صلتكما بها.. لا أريد رؤيتكما مرة أخرى ولتنسيا إنجابكما فتاة يوما.

لم تطق "سكينة" فاهرمعّت مستترة عن مرآهم. شنّف إليها ثم دفع مَنْ بِرِيق الشباب إلى والدها قائلا:

- الليلة سوف أتزوجها. تمتعا بها تلك السويعات لحين عودتي.

انصرف عن البيت بعدما تهشمت عمدانه وتفرّق ساكنيه تجاه قصره ليتجهز لزيجة جديدة.

دنت "بلقيس" من والدها تعتصر عينيها انتحابا:

- أبي أتوسلك ألا تزوجني إياه.. إنه مريع.. أرهب بقائي معه وحدي.

طوّقها متنعما بدفئها ورائحتها قبل أن يشبكها الصياد. حينئذ سيتقصّى عرين الأسد. لن يرتقب بَصَر جثة ابنته أو يرى الصغيرة ينهش عرضها كالكبرى.

تتم الزيجة فيهجرون القرية حتى لو باتوا بلا مأوى. يكفي أن يحيا آمنا على ابنته الأخرى وحزنا على الكبرى بدلا أن يعيش الارتياع والشجو عليهما معا. يدرك جيدا أن الفرعون لن يتركهم أحرارا لحين قدومه ليلا. سوف يقيدهم داخل بيتهم وينأى بطريق النجاة عنهم.

سوف يقضون الساعات الباقية مع "بلقيس" ابنته الحبيبة يعوضونها الحب والحنان قبل تركها علها تغفر تجلفهما.

تيبس استيقاظها بعدما وضعت الزائرة الصحية محلولا لها منبهة إياهم أن تتناول الطعام ما إن تستيقظ فمعدتها فارغة مما أضعفها.

حملق بها وداخله تثار تساؤلات كثيرة. لا يظن أن الأزف يصل بها حد الموت جوعا خاصة أن مصروفات المدرسة تناسب متوسطي الحال لا الفقراء.

فلِم إذن لَم تتناول الطعام لتتدهور حالتها هكذا؟!

أم أن شيئا يزعجها ويشغل بالها عن تأمل حالتها والاهتمام بصحتها؟!

قد تكون مضايقات الفتيات لكن عائلتها كيف تتركها دون الانتباه لها.

أقاويل وشكوك كثيرة تتقافز بعقله أحجارا ببحر ذهنه مترجرجا.

انتشله صوت المعلمة:

- كم أحزن كلما نظرت لتلك الجميلة! أتعثر أن أتخيل مدى قسوة الزمن الذي لا يترك أحدا إلا ويفرغه تماما حتى من عنفوانه! لا تبدو شابة فتباشيرها بها نطفة وَصب وعذاب زاداها سنينا فوق عمرها.

انصرفت عقب أن تركت الطعام لحين استيقاظها وهرولت لحصتها. بقي هو قبالة الممددة على أريكة منزوية بغرفة المعلمين المنشغلين بتحضير حصصهم.

تطلع حوله لثوان حائرا. تأخر على حصته وقد يسبب ذلك مشكلات خاصة أنه مازال ببداياته لكن ليس من الإنسانية ترك الصغيرة وحدها.

عزم البقاء حتى تفق ليتأكد تناولها الطعام. إن فرغت منه فرغ اليوم الدراسي فيتتبعها ليتقين أنها غدت سالمة.

نأى بمجلسه على بعد أمتار قليلة إزاءها وكله حميّة لاستيقاظها!

غمس يده بالدجاجة مستطيبا إياه بصوت متلذذ لإمعاضهم أكثر منه تمتعا بالغداء.

ترصده "مهران" في إضرام يتوق لو يعلق الطعام بحلقه فيريحهم ويسكّن الجمعاء. بريق السكين يطوّق شعلة عينيه سرعان ما قذف أفكاره خورا. ركز بصره عما سيقدر سرقته لأجل أخته قدر إمكانه ووالدته تتأهب هي الأخرى متجرعة كؤوس ألم صُبت على ابنتها التي تفتقر للطعام. لا تنل نصيبها سوى بالفطور والعشاء القليلين فتضيع وجبة الغداء بسبب تعليم لا نفع منه. مصيرها إما الحبس بالقصر مدى حياتها أو الزواج من جلاد آخر يستتم العمل بعد عمها.

ابتهلت ألا يُنصب لابنتها ما كُتب عليها حتى لو أفرّت مع شقيقها كما فرّ ثالثهم وتتجلّد أمام سطوة الفرعون مفردة.

الأهم سلامتهما ومستقبلهما دونا عنها. ماذا ستحيا أكثر مما حيته؟!

أتم طعامه فشنّ حروفه عليهما قائلا:

- سوف يشهد اليوم عروس جديد بالقصر.

أغمّ "أمينة" قوله واستعبرت في أسى على ضحية جديدة يعم عويلها القصر بعدما اختفت ما يقارب الشهر.

شنّف "مهران" إليه حانقا أفعاله الصبيانية الشيطانية وحزنا على من اجتباها الإملاق بقية حياتها أو الحتف إن ترحم الفرعون بها.

تارة يحمد ربه لقرابتهم وإلا باتت شقيقته غنيمة دسمة كمثيلاتها من الصغيرات.

- اليوم عقد القران ثم سأجلبها. أحذركم الاختلاط بها.

أتبع القول بلكم الطاولة فاضا الحوار. انصرف وغليظتاه تضرب الأرض كما تفعل عصاه يتأهب أوبة أمجاده في أتم الاستعداد.

- خذي صغيرتي.. كله لكِ. تناولي ما تشائين حبيبتي.

قالتها "سكينة" في قفقفة وهي تقدم اللحوم لابنتها. يغدقون عليها ما حرّموه دوما ليدّخروا أموالا لكن الآن لا داع. وقع ما خشوه فلِم يبخلون عليها وتتذكرهم بالأزف. سوف يشيدون قصورا وأحلاما وذكريات باهرة داخلها بتلك السويعات القليلة.

لوكت "بلقيس" قطعة اللحم في غبطة. لم تذقه سوى بضع مرات طيلة عمرها. غفلت عما يخص العجوز بينما والدها يخفي وجهه لشناعته وعجزه عن حماية ابنته. مثُل عونا بدلا من مرصادا لرغبة الفرعون. كما تيقّن فقد قطع الفرعون كافة سبل الفرار بابنتيه وإنقاذ صغيرته لمّا كلّف رجل بمراقبة منزلهم مانعا الصغيرة من الخروج سواء وحدها أو معهم. لم يطق البقاء فأزف في طريقه لغرفة ابنته مستترا.

دنت "بتول" من شقيقتها الكبرى بل الأحرى طبق اللحم الشهي ترجو والدتها في ضور:

- أمي أريد القليل.. إنني جائعة.

احتضنت "بلقيس" طبقها معرضة عن طلبها فصاحت الوالدة:

- ادخلي غرفتك دون خروج.

زمت شفتيها مندفعة للغرفة باكية كحال والدتها التي زاد نحيبها تربت على شعر "بلقيس" المنهمكة بتناول طعامها تتحدث مختنقة:

- حبيبتي.. اليوم عرسك.

علق الطعام بحلقها واختنقت في جبانة. توسلت والدتها التي قاطعتها فلن تحتمل سماع نبرة ابنتها الخائفة:

- حسم الأمر صغيرتي ولا مفر من زواجك. تذكري دوما أن الله لن يضيعك ولا تهابي شيئا. تذكرينا وتذكري حبنا لك يا صغيرة. لا تجعلي الأيام تنسيكِ والديك وشقيقتك. سنظل نحبك وندعو الله لقياكِ آجلا وليس عاجلا.

اختنقت قسمات "بلقيس" وكلمات والدتها لم تزدها إلا ارتيابا مما هي مقدمة عليه. ترجرجت معدتها وأوصد باب شهيتها حينما فتحت بوابة عينيها على مصرعيها. ترقرقت الدموع بمخزنها فسارعت والدتها بإزالتها تدمع هي الأخرى. تركت زمام الأمور لا تملك سوى الدعاء والنحيب.

جفل من مراقبة النائمة لمّا أعلمته طالبة أن المدير ألزمه الحضور. زفر حانقا متيقنا أن أحدا أوشى ترْكه الحصة ولم يأتِ أو قد أثرن جلبة فطلبه المدير.

طالع "فريال" في تيه حتى أوصى إحدى المعلمات بالغرفة الانتباه لها وأن تعطها الطعام بحالة استيقاظها فامتثلت ممتعضة من مقاطعته عملها.

انصرف ونال ما علم. محاضرة طويلة مملة والمدير يلقنه دروسا بالأخلاق واتقان العمل وهو غير منتبه. كل ما يشغله انذار الجرس بالرحيل. يبغي العدو ليراها قبل رحيلها. متيقن استيقاظها وقد تركها منذ نصف ساعة ماثل أمام عجوز لا يكف عن الحديث.

برقت تباشيره لما انفض اجتماعهما فالتهم الطريق للخارج ولولا هيبته لهرول كالصغار!

زالت بسمته وقد أبصر الأريكة فارغة فعاد فتوره. أخبرته المعلمة أمر استيقاظها وتناولها الطعام حتى صدح صوت الجرس فانصرفت.

التقط حاجياته والضيق يتملكه. كانت فرصة لا تعوض لمعرفة كل شيء عنها والانفراد بها يسألها ما يريد فيرضي فضوله لكن للقدر رأي آخر.

أدركت القصر تكاد ترقص بهجة وابتسامة الحارس طمأنتها أن الفرعون ليس هنا!

صعدت لأعلى في نشاط فقد تغذّت بعدما باغتتها المعلمة بشطيرة لذيذة في حرص منها على إكمالها لآخر قطمة بها. حمدت ربها وإغماؤها أنقذها من حرجها لطردها. غدا سوف ينسون ما حدث ولا يسخرون منها.

عزمت على استذكار دروسها قبل عودته فيشغلهم بإجبارهم البقاء أمام ناظريه.

تيبست محلها عندما فُتح باب غرفتها. أبصرت شقيقها الذي وضع يده على ثغره علامة الهدوء. أترس الباب فقالت:

- أفزعتني!

أخرج طبقا عتيقا اختلسه لإخفاء الطعام به معظم الأيام لأجلها. نظرت لما يحويه من أرز وشرائح صغيرة مقطعة من الدجاج المتبقي فابتسمت في حنو تتلمس شفتيها مصطنعة الجوع حتى لا تهدم بهجته وفخره بفعلته.

تناولت ما بيده أعلى الفراش. انشرح قلبه لسعادة شقيقته وصغيرته التي رباها.

جاورها مربتا على رأسها. رغم شبعها إلا أنها عزمت الأكل حتى النهاية احتراما تعبه. شكرته فور إنهائها ثم لقيت بسمتها حتفها منصتة لخبره عن زواج من يلقب بعمها.

انقبض قلبها هولا والجلجلة ستضج القصر مرة أخرى. ضمها "مهران" يهدهدها مشفقين على حال صاحبة الحظ الأتعس بالعالم أجمع.

نفض يده عن يد حماه جاذبا العروس المرتعدة تجاهه قائلا:

- لا أريد رؤية وجهيكما النتن.

جرّها عنوة تتبعه تهليلات مرتجفة فقدت المسرة من أهالي القرية المشفقين على الملاك الصغير بيده. تقصى البيت ورفعها عاليا كلعبة يضعها في عنف أعلى جواده قبل أن يمتطيه خلفها محتضنا بدنها المرتعد.

زحل عن البيت فبعُدت التهليلات وحلّت شهقات النساء اخترقتها دوّي "سكينة" التي هوت تلطم وجهها تصيح باسم ابنتها مطالبة عودتها. جاورها "عبد القادر" صريعا لخنجر اقتلع قطعة من قلبه ألا وهي ابنته الكبرى وأول فرحته.

ناحت "بتول" جاهلة مصير شقيقتها لكن الأجواء تزرع الهول بجوفها. هل كتب عليهما الفراق أم للقدر تصاريف أخرى؟

تضافروا قبال الباب وكف "مهران" عاد مأوًى لشقيقته. آزرها فافتقر هو للعون. والدته مطرقة والهموم تثاقلت بقلبها. ربت على ظهرها لا يبخل عليها هي الأخرى بالدعم. استنزفتا كل ما بداخله وغدا مفرغا.

انبلق الباب عنيفا فارتعدوا متقهقرين. ولج دافعا العروس المرتجف فرائصها.

أجذله خضوعها إزاء صراخ قليل بها.. لا شك أنها ستريحه.

أشاح وجهه عنها متفحصا الأسرة والخادمات بعيون صقر. لم يعمى عنه أحد وقد حضر الجميع.

- كل شيء جاهز سيدى والقماشة البيضاء أعلى الفراش كما أوجبت.

حمل الفتاة على كتفه بضحكات صاخبة صوب الطابق العلوي. انطبق جفناها في تثأثؤ. اهتزاز يدها المصطكة بظهره توحي لكمها له ظاهرا فيستتر الباطن وهو التهيب حد الارتعاش.

مرت دقائق طويلة حتى شقشق الضجيج الأجواء. احتضنت الرموش بعضها وقد أخذت عفة الطفلة عنوة. طلّ خلف السياج الحديدي على طرف الدرج والممر قاذفا القماشة الملطخة بالدماء ثم عاد لمكمنه ثانية فابتدأ وصلة من نهش لحم الصغيرة والتمتع بها دون تزعزع أو شفقة.

احتضن "مهران" شقيقته التي ساهمت بحلقها فبحّ صوتها. اندفعت والدته والخادمات لغرفهن المجهزة بالأسفل بأول ليلة للعروس. تلفت أعصابهم لما يستمعون كما تلف جسد التعيسة بالأعلى.

أترس باب الغرفة السفلية حائلا بينهم وبين الضجيج لكن حتى لو أغلق ألف باب وباب سيظل حجب الألم محال.

نهشها واقتلع كل جميل بها ثم ركلها فهوت أرضا. افترش سريره في دعة وكأنه لم يقترف بشاعة تسود لها الوجوه.

تئن ألما وقد جرح حلقها وسالت دموعها. سترت لحمها المخدوش بأقمشة ثوبها. أجهشت بالبكاء حتى سعلت دما لفرط الصياح.

وضعت يدها على شفتيها المنتفخة اتقاءا تيقظه كي لا يبتلع القليل الباقي منها.

زحفت أرضا متألمة وانزوت بدُبُر الحجرة. سلبت حمرة وجهها فبات باهتا. تطالع كل إنش كالمختلة. ادّكرت عائلتها الصغيرة فانفرطت في النحيب. تغضّنت قسماتها وانشقت شفتيها فإذ بالدماء تسيل تطوّق سابقاتها. خالت عائلتها كما فعلت أسرتها القابعة بنهاية القرية ترافقهم قماشة حوت ممتلكاتهم الزهيدة. لوّح الوالدان مودعين إياها كأنها أمامهما. شلالات من العبرات منهمرة على من دب الخوف أوصالها بفراق شقيقتها وتيه والديها.

ليلة شهدت تحوّل طفلة لأنثى عنوة.

لا تلجم عبراتك؛
فغرّة الخير قطرة من الغيث.

إسراء عبد المنعم

ثلاث ليال بظلماتهم ودموع سمائهم وخفوت شمسهم وخفاء قمرهم كل ينعي حظها حزين عليها هاتفين الرحمة لجثمانها.

السماء تقتطف قطعا من سحابها تستر جسدها لتفرحها بثوب لا يحتاج التطريز فقد خلق لأجلها عله يطوّق جسدها الناعم بدلا من ثوب مماتها لا عرسها. لم تبتهج عيناها برؤياه ثانية. تمزق أشلاء وتمزقت معه أحلامها فتاتا. توارت أمنيتها بالتباهي بثوبها أمام جارتها.

احتضنتها الشمس لتدفئها. تمحي صقيع جسدها وتداوي جروحها. تحيطها كجوهرة نفيسة تحترس حسد الناظرين وعبث الأيادي وقسوة الألسنة مانعة أن تصل إليها ما يزيدها وصبا.

هجر القمر سماءه ليخترقها. تجول بجوفها متحسرا. الغَبَش يحاوطه ويسكنها حتى تمكن منها. أطلق طاقته بكل مكان يتلمسه يعيده منيرا. ينتشل الدجى منه لكن هيهات. أقسمت العتمة ألا تبرحها.

ألتلك الدرجة فقدت الحياة والعنفوان؟! تضافرت المآسي حولها. باتت عجوزا تردّى شريكها فغدت وحيدة.

زاد الأذلاء ذليلا ليصطف الأربعة أمامه. أطرقت رأسها حتى قاربت ملامسة الأرض حيطة. رغم ضيق بيت والدها إلا أن دفئه أكفاها وأراح بالها.

لمحت "أمينة" الصغيرة آسفة. قضت ثلاث ليال من العويل فهبطت خرساء معدمة.

طمأن "مهران" شقيقته فحادت نظراته صوب حديثة العهد بينهم.

غامت عيناه وتنهد. لا حيلة له سوى الدعاء أن تفر قبل أن يحتضنها الموت كما احتضن من قبلها.

طَنَز مما قاله. لكان أولى أن يفر هو وعائلته. لكن الذعر والرغبة باستعادة أموال والده يحيل دون هروبه.

رمق زوجته المنطفئة فتفاقم الهول. تقصّى القصر بعدما عنّفهم منبها إياهم عدم الحديث مع زوجته التي أقسم إن علم بقاءها بالأسفل بعد تناول إفطارها سيكون يوم مماتها فأومأت في رَجَب وتضرم فتيل فخره.

قار "مهران" وأخته من الطاولة يتغذيان بينما تيبست محلها في انذعار.

جفلت لمّا حطّت يد على ظهرها فتلفتت للفاعلة. أبصرت سيدة ذات وجه بشوش رغم الفتور وابتسامة هادئة جذابة ذكرتها بابتسامة والدتها.

- اجلسي ابنتي.. تناولي فطورك الأول معنا.

عوّلت عليها لنبرتها الحنون إلا أن قلبها وَجِل أن تكون أقنعة تستر الخناس خلفها.

جلست جوارهم ومقلتاها تهتزان متطلعة للحاضرين دون مس الطعام. تنهد "مهران" بنبرة ساخرة:

- لا تخجلي وكلي ما تشائين. اليوم سيخَط ألما جديدا!

أنّ عقب لكم والدته تزجره لإفزاعه الفتاة فاحتج حانقا:

- ماذا؟! هل كذبت عليها أم أجرمت؟ إنها حقيقة متيقنة منها أكثر منا.

يئست منه فربتت على يد "بلقيس" المقشعرة ذات الوجه الشاحب أمامها مبتسمة لها.

بللت شفتيها والشاب قد ثبّطها. واجهها بحقيقة حاولت إنكارها. بارحتها الشهية فألقت الخبز منتحبة وركضت للأعلى منتظرة مصيرها المحتوم ليلا.

قنطت على أفعال ولدها الأرعن. قالت "فريال" قبل انصرافها:

- حرام عليك أخي.. أثرت فزعها والفتاة لا ينقصها.. يكفي ما تمر به.

احتار وقد تجزأ. البعض مبتهج لما قاله مطالبا المزيد للانتقام عن طريق أداة متعته الكامنة بالصغيرة الملقبة زوجته والآخر احتج لفعلته.

مال لمن صاح أن يزيدها وجعا لينغص حياة غريمه فيراه ضائقا كما يفعل بهم.

حينها أشرق وجهه والتمعت مقلتاه ما إن جال ضيقه بخاطره.

الفتاة بها ما لم يكن بمن قبلها.

يرى شعلة متمردة تحتاج من يستثيرها.

يرى صغيرة تملك أحلاما فُقدت من سابقاتها.

يرى الكثير بها ما قد يحقق لمصالحه ولو القليل.

ليس استغلالا قدر ما هو إنقاذ لها. تكون الأداة والسبب. يضرب بها من حديد وسببا يدفعه للانتقام ليخلصها.

ما أدركه بها سيساعده كثيرا بالخطوات القادمة. ليس عليه سوى التخطيط الجيد لمعرفة كيفية جعلها تأمن فتتبعه خانعة لأوامره في حين يتمتع هو بضيق وغضب الفرعون حتى يحين يوما يفكّر به جيدا عمّا يفعل بعد إثارة غضبه.

حتى لو لم يصل لما أبعد فيكفي الاستمتاع برؤية من يبغضه يتآكل مشعلا نيران غيظه.

قبّل جبين والدته المتعجبة لطول شروده عندما نادته فلم يجب ونظره مرتكز محل جلوس المسكينة قبل أن ينصرف هو الآخر.

ضربت كفيها ببعضهما زافرة تدعو أن تأتي السكينة المتأخرة بعودتها لتسكن قاطني القصر وتطرد من ألقاها خارجا.

طرق الباب دالفا دون انتظار الإذن. انتفضت "بلقيس" تتأزر بوشاح خفيف أعلى شعرها المجدّل.

راقب حالتها مقتربا فابتعدت رهبة. مقلتاها تهتز رعبا وهو جامد الملامح لم يعبأ بطمأنتها. توقف على بعد إنشات منها بعدما اصطدمت بالفراش ولم تجد مفرا آخر.

- لِم القلق؟! لست مسخا كبغلك.. عفوا أقصد بعلك.

نطقها هازئا فعقدت ذراعيها أسفل صدرها متصنعة التماسك تدثر هولها كي لا تصبح أداة يصب الجميع غضبه ورغباته عليها.

أشاحت وجهها فاستنكر بسالتها المتولدة للتو منافية ارتجافها كعصفور بالأسفل أمام الفرعون.

لكن لا يهم فشجاعتها تزيد مخططاته نجاحا وبهاءا.

شاركها عقدة اليدين لكن خلف ظهره يتحدث بآلية خالية من الحياة:

- لست وحدك.. كلنا بنفس المركب أخشابه روْع وقلق دائم.

حادت عيناها تجاهه فشرد قوله:

- قتلنا أحياءا وسلبنا البهجة. لسنا على شاكلته. كل من بالقصر يعاني جبروته يتمنون موته، لا قدرة لأحد أن يريح العالم منه فجميعنا لدينا أحباب نخاف فراقهم.

تغضن جبينها تجهل كلماته لكن نبرته بيّنت مدى اختناقه فكان عينا حان انفجارها بالماء.

رمقها وعيناه لا تفارق خاصتيها فارتبكت تباشيرها وأشاحت بصرها بعيدا عنه.

تلفت وقبل الخروج أردف بابتسامة منتصرة متيقن بداية نجاح مخططه بإظلام حياته والانتقام ولو بشكل ضئيل:

- المصلحة مشتركة.. إن أردتي الحياة فكل ما عليك أن تأتيني بروحك وشجعاتك لندعم بعضنا البعض.

اختفى عن الأنظار وكلماته برق بأذنها يثير فضولها.. وخنوعها.

قابلها كعادته مؤخرا وطالعها دون أن يحيد عنها قائلا:

- لن تحضري طابورك اليوم. انتظريني بغرفة المعلمين.

رجفة خفيفة ملكتها واتجهت للغرفة بينما أذن من معلم غيابه عن طابور الصباح ثم تبعها عازما قطع خيوط فضوله بكلماتها التي سيحرص أن تكون صادقة ترضيه.

جلس "عصام" على المقعد بأريحية منافية قلقها الداخلي وهي ماثلة أمامه تفرك يديها المتعرقتين ببعضهما.

ظل دقائق طويلة صامتا يرتب كلماته حتى دنا من مكتبه هاتفا:

- أسمعك.

جعدت جبينها عجبا متسائلة ففك ألغاز شفرة كلمته:

- من أنتِ؟ لِم رفضتي الريادة بعدما اخترتك؟ ولِم هالة الحزن تحاوطك آبية تركك؟ جربي الحديث فأنا منصت جيد إن لم أكن ممتازا.

تبارز فضوله مع ضيقها تستشعر تجاوزه الحدود بين طالبة ومعلمها.

- أحترمك أستاذي لكن عملك لا يتضمن جمع معلومات شخصية عن طالباتك.

رفع حاجبه وتحدث في برود يستتر خلفه ثورته من وقاحتها المفاجئة:

- لو كنتِ تحترمينني لما تفوهت بتلك الوقاحة.

لم يكد يكمل حتى قاطعته وقد تضاعف ضيقها لوصفه بالوقاحة فقط لأنها تلتزم الحدود بينهما متمسكة بمساحتها الشخصية:

- أستمحيك عذرا! لست وقحة. حفاظي على ما هو تابع لي ولي أنا فقط ليس وقاحة بل حق لنفسي وواجب على الجميع احترامه.

نهض عن مقعده بعنف وتمقّطه تفاقم فلم يصل تفكيره يوما أن تكون بتلك الشجاعة. ظنها مكسورة ستجيب فورا خاجلة الرفض.

- تأدبي يا فتاة!

انتقل الانفعال إليها مجيبة بتحدٍ وحدة:

- أنا مؤدبة دون الحاجة لأمرك. وإذا صعُب عليك التصديق فما رأيك أن نذهب للمدير ليفصل بيننا؟ وقراره تاج على الجميع هنا.

انتصرت بسمتها لمّا لمحت توتره. أشار للخارج بوجه جامد:

- بدأت الحصة الأولى ، اركضي وإلا.. طُردتِ.

طالعت الممر جوارها منتبهة لتأخرها. تقصّت الغرفة ببطء متصنعة البرود وما إن تيقنت اختفاءها عن مرمى نظره حتى ركضت مسرعة تدعو ألا تفوت الحصة فتزجها المعلمة أمام الجميع خارجا.

احتضن فكاه بعضهما يكاد يحطم أسنانه. انصرف هو الآخر متناسيا اللقاء الوقح يستدعي تركيزه بيومه.

تسمر ما إن ارتطمت قدمه بشيء به بعض من الصلابة. نظر إليه وسط الممر. انفكت عقدة حاجبيه وفترت نيرانه يرى كتابا مدرسيا لمادة الإنجليزية مدون عليه اسمها "فريال فارس".

مال ملتقطا إياه يدحرجه بين يديه قبل أن يضع طرفه بين شفتيه يخطط لانتقامه من وقاحتها اليوم بحصته لتعلم جيدا خطأها أن لكلٌ مقام فلا يأمل أحد أن يعلو مقامه.

ابتعدت "بلقيس" حانقة عن النافذة التي لا تطل سوى على السور العالي حتى أنها لا ترى ما بعده والنافذة الأخرى المطلة على أراضي القرية مغلقة بإحكام كي لا تختلط بالعالم.

تأملت السماء البيّنة ودمعة لامعة انهمرت من قيديها تترجى أن تُزال أيامها المؤلمة وتُرحم من وجع لن تقدر تحمله.

طلّ طيف والديها وشقيقتها الصغرى. ضيق حالهم لم يلهيهم عن كونهم جوارها.

رغم انشغال كل بعمله لكن يقينها بعودتهم يهون عليها.

لطالما حلمت بأموال وملابس وكل ما تلمع له العيون.

حصلت على أمانيها لكن فقدت روحها ثمنا لها.

ليتها ما تمنت، ليتها رضيت بما كتب عليها من الشقاء، لكان أرحم بما يخط الآن على جسدها من ألم داعسا أي أمل.

رفعت أصابعها المرتعشة تجاه رقبتها ذات الخطوط البارزة إثر خنقه لها أثناء تعذيبه ونهشه جسدها.

عضت شفتها السفلى عنيفا فكادت تدميها. نظرت لكل اتجاه كشريدة ضلّت مأواها. عزمت النزول ضاربة أوامره عرض الحائط قبل أن تجن ببقائها في بقعة شهدت سلب طفولتها.

عاينت يمنة ويسرة رهبة عودته. ترددت بخطواتها لكن صوت خافت يتلو القرآن طمأنها. وقفت على أعتاب الغرفة فأبصرت المرأة الطيبة على مقعدها وبكفيها القرآن تقرأه منتحبة.

رنت منها ثم افترشت الأرض أمامها محتضنة ساقيها الضعيفتين لصدرها.

رصدت "أمينة" دخولها فاستكملت قراءتها لتثير الراحة بنفس من تطالعها في تطفل تستمع لكلمات تطيب كل جرح تداوي كل داء.

جفلت السيدة لمّا عدّلت الصغيرة عليها نطق كلمة غفلت عن الصواب منها.

صدّقت وأغلقت الكتاب تقبله برفق واضعة إياه أعلى الطاولة جوارها وقالت متعجبة:

- كيف تعلمتها؟!

تكتمت "بلقيس" هنيهة حتى خفتت بالإجابة:

- لقد ختمت القرآن الكريم حفظا منذ سنتين ثم ختمته قراءة ما يقارب الخمس مرات كما تعودت الذهاب للشيخ كل مدة حتى لا أنساه.

بدى إعجابها الشديد في دعائها:

- بوركت صغيرتي وبورك والديك. حسن ما فعلا.

غامت عيناها فدعمتها "أمينة" بنبرة حنونة:

- نحن هنا عائلتك صغيرتي. أبنائي أخوتك وأنا والدتك إن شئتِ؟

تبسمت بوجهها لكن قلبها ينزف غمة. انشغلت مع السيدة التي صممت تخليصها من قوقعتها المظلمة، فأشغلتها بأسئلة عن القرآن والتفسير كما استتلتها وكلما أجابت الصغيرة التي أبهرتها صوابا تلمست وجنتها في حنان أو ربتت على رأسها أو حتى قبلت جبينها فخورة بطفلة مثلها تملك ما يفقده الكثير بشبابهم من التدين والتقرب إلى الله .

فرغ من مراقبته إياهما ثم انصرف وبدأ شطره المعاتب بعدما أبصرها ملاكا طاهرا لا يستحق جرم عمه ولا جرمه.

أين كان عقلك "مهران" عندما حاولت إثارة عناد وتمرد سينعكسان عليها بالأذى والشر.

أتظن كرة صغيرة مثلها تساعدك بالقصاص لكل روح قبضها؟!

تستمتع أنت بالانتقام الصغير لرؤيته غاضبا بينما روح تعانى وقد تقودها مخططاتك للهلاك.

ألقى جسده على الفراش واعتدل بجلسته تحيط يداه رأسه. عقله يذهب ويجئ لا يعلم علام يستقر وماذا يقرر.

في بعض الأحايين لا يفكر سوى بحاله وأخيه الذي ذاق الألم كؤوسا وشقيقته المرتعبة ووالدته المنتحبة.

أحيانا أخرى يفكر بمن لا ذنب لها إعجاب الذئب بها.

فر إلى النوم العميق ليمحو مخاوفه ومخططاته. سوف يدع كل شيء فليحدث ما يحدث وليقوده جسده لما يُقاد.

تسب حالها وقد نست أن اليوم حصته وستواجهه بعدما تواقحت بالحديث. تعترف بذلك كما تعترف أنه تجاوز حدوده هو الآخر.

من هو ليحشر أنفه بخصوصياتها؟! لم يحترم حياتها الشخصية وأسرارها التي لا يحق لأحد معرفتها فلِم تحترم أنه أستاذها؟!

كادت تلكم رأسها حانقة عندما جاء ببالها بعض الردود أقل حدة من كلماتها.

ليتها قالت "لا شيء هام" أو "أعتذر لا أستطيع الإجابة" والكثير والكثير والأسهل أن تتهرب متحججة أن شخصا يناديها.

لكن عقلها الضئيل قادها للهاوية بردوده الغليظة كسؤاله تماما.

تذبذبت أنفاسها حينما ولج وعيناه تتقصى مجلسها. ابتسامة مريبة سكنت ثغره. خافت من القادم والذي لا تظنه يبشر بالخير أبدا.

لم يسلم أو يكتب ملخص الدرس كما اعتاد بل صاح فورا بهن:
- من نسي كتابه؟

لم تفارقها نظراته فانتبهت بعض الطالبات لكنهن انشغلن بالبحث عن كتابهن. أدركت مقصده بإحراجها ثأرا لفعلتها فابتسمت بمعالم باردة متحدية تمسك حقيبتها تبحث عن كتابها.. لكن لم تجده!

اهتزت عيناها تارة عليه وأخرى على حقيبتها. تقسم أنها حملته معها بعدما تأكدت للمرة المليون عدم نسيانها حتى لا يتكرر حرجها.
- يا الله أين هو؟

تساءلت في خفوت وازداد احمرارها. أوشكت البكاء وقد يئست البحث فتباطأت الوقوف.

ابتسم ولذة الانتصار تغمره قبل أن يرسم الجمود والغضب على ملامحه صارخا بها:
- مرة أخرى! ألا تستحين؟! أخرجي ولا تعودي إلا والكتاب معك. غير ذلك وجهك لا أريد رؤيته أبدا.. غبية!

التقطت حقيبتها بارتعاش منصرفة. ذرفت دموعا تلمع أمام الناظرين حتى اختفت عن رؤياهم.

بدا عليه الندم وجفناه ينطبقان. ارتكب ما ينافي النزاهة بمعركة أرادها شريفة فلوّثها وأنهاها لصالحة بلا عدل.

أحرجها واتهمها زورا فقط لأجل مصالحه!

أكله الندم وأحرقته نيرانه ليلتفت معدا درسه في فتور ساخطا على فعلته. كل فينة والأخرى يشرئب عله يجدها آتية لكن كيف والكتاب معه يخبئه بحقيبته؟!

ضاق لتكرر عادته بمشاهدة الأراضي عينها.. يرغب الجديد ففكر كيف يصرف الملل عنه.

طالع الأراضي وقد كمهت الشمس مثله تضرب نورها الحارق فتلمع الثمار والمحاصيل كمن تتغنى بألحان عذبة وقد انفردت بالسلام.

ضاقت عيناه واتسع ثغره مبتسما. عقد العزم السفر غدا للقرية المجاورة يرى أراضيها يبتاع البعض منها فيزداد كسبه للمال ومعه يبتر السآمة. عبثت بسمته مقررا قضاء ليلة طويلة مع زوجته معوضا غيابه غدا.

انتفضت ناهضة على قدميها المرتعشتين تستمع لصهيل الجواد إثر صفعات حارقة من السوط ليتبعثر تماسكها أرضا. كلما حاولت لملمته عاد لتفتته بتلك الأصوات خارجا.

زجرتها "أمينة" في جزع:

- هرولي لغرفتك قبل أن يجئ!

ركضت "بلقيس" صوب غرفتها ثم أترست الباب بهدوء قدر المستطاع. ارتعدت وخطواته تدك الأرض دكا ثم جلجل معلنا حلول موعد الغداء. أسكنت كفها أعلى قلبها المكدوم تدلكه محاولة طمأنته ليعيد ضخ الدماء التي توقفت إثر تجمد البعض بشراييها رهبة لمجرد سماع صوت خطواته العنيفة.

تتابعت أنفاسها وأحكمت الوشاح الخفيف المحتضن شعرها بتناغم تسترد شجاعتها. فتحت الباب متطلعة يمنة ويسرة فوجدته يتقصّى غرفته هو الآخر بعينين ناعسة.

ثبت "مهران" يلحظ ارتجافها الطفيف قبل أن تركض لأسفل مهرولة. لا تمر ثانية إلا ويحيد بصرها تجاهه ثم تجفل ملتفة.

زفر وما ظنه هينا سيغدو صعبا. عاون والدته الهبوط وعروقه نفرت. توسمت كلله في شجن. كلما أرادت البقاء بغرفة سفلية لتريحه من عناء حملها وحمل المقعد الحديدي تلقى التعنيف إما من قاتل زوجها الذي ينفر راحتها أو ولدها الرعديد مقسما أن العنَت لأجلها راحة له. يكفيه رضاها عنه.

وضع المقعد على الأرض الصلبة متأوها. تبسمت بوجهه تدعو إصلاح حاله وأن يُجازى خيرا إثر خيراته.

بادلها في حب يحرك مقعدها صوب الطاولة تحت أنظار "فرعون" المراقب حانقا حتى مثلا أمامه وجوارهما زوجته الجميلة.

على غير اعتياد تحدّث قبل أن يتناول الطعام:

- سأغيب يوما كاملا بالخارج. الليلة مساءا أترك القصر وأعود بنفس الموعد غدا.

أشرقت ملامح "بلقيس" في جمام بينما التزمت العجوز الصمت. تتحير أتسعد انصرافه عن القصر أم تحزن فغيابه لا يجلب سوى المصائب حين حضوره.

تغضن جبين "مهران" مفكرا سبب غيابه ومذهبه حتى لمح التؤدة على وجه من تجاور والدته. هزأ تفكيرها الطفولي فقد سعدت ظنا منها راحتها. لا تعلم أن اليوم سيحمل أضعاف عذاب الأمس يعوض فراقها.

أفاقا على صهيل جواده إيذانا رحيله. تقلصت الأصوات حد الخفاء فجلس مع والدته على الطاولة وسبقتهم "بلقيس" بشهية مفتوحة لأول مرة. يقرع قلبها طبولا غبطة.

لم تروقه مسرتها البتة فسخر قائلا:

- أغلقي فمك المتسع من الأذن للأذن ولا تسعدي كثيرا..

- "مهران" أغلق أنت فمك الثرثار وتناول طعامك في صمت.

زجرته والدته التي سعدت لتناول الصغيرة طعامها. قاطعته تحول دون تعكيره مزاجها وحمدت ربها صفو ذهن "بلقيس" التي لم تعبأ بحديثه المبهم فاستكملت تناول طعامها في خَمْص بينما الآخر احتج على والدته متكتما.

ادّكر شيئا هاما فأسرع ملتقطا رغيفين من الخبز يضع بهما كمية لا بأس بها من الأرز مصحوبة بما يطاله من اللحوم. هرع بها لأعلى قبل أن تراه إحدى الخادمات فتشي به لرئيسها مرغمة تنفيذ أوامره ألا يصعد الطعام بالغرف سوى لأجله فقط.

تعجبت من أمره فمحت "أمينة" عقدة حاجبيها ببسمة حنونة لولدها العطوف الحبيب معلقة:

- يخفي الطعام لأجل شقيقته عند عودتها من مدرستها حتى لا يفوتها الغداء.

أومأت لها وانتقلت البسمة لوجهها. ابتدع ذهنها أخا يرعاها يضحي لأجلها.

لو كان لها شقيق قوي البنيان أَشْوَس لكان حالها ليس بهذا الحال.

عاد فرحل الكلام وأسدل ستار الصمت و"مهران" يتطلع إليها حائرا صمتها وتجاهلها كلماته الملقاة عليها بالغرفة وكأنه لم يتفوه حرفا!

أتجاهلت حديثه أم أن البهجة أغفلتها عن قوله؟!

بجميع الأحوال لا معضلة. سيعيد قذف نفس الكلمات ويزيدها شحنات قوة وحماسة لتلتصق بذهنها ولا تفارقها مهما زادت هما أو غبطة.

تجلس على مقعد منزوٍ بنهاية المدرسة تلعق جرح كرامتها المهدورة تبكى ألما لما تعانيه خارج القصر قبل داخله.

صارت تبغض المدرسة بمن بها وتمقت يوم أن أصرت استكمال تعليمها.

كلما قررت اعتزاله ادّكرت الجلدات التي لاقاها شقيقها حينما ارتقت إلى الصف الأول الثانوي بمرحلة دراسية جديدة. تصبر حالها ألا تلقي جهود شقيقها أرضا فتجزع لأجله. سوف تنهي دراستها الثانوية ثم تتقصّى العالم الخارجي أجمعه. كفاها ضرارة القصر لا ينقصها مضرة فاقدي القلوب الرحيمة.

الجميع يمقتها، الجميع يعشق إحراجها، الجميع يريد الموت لها. لم يحبها سوى والدتها وشقيقاها. أحدهما ابتعد والآخر ترتعب أن يلحق به.

لم تنبس ببنت شفة عندما داعب جرس الرحيل أذنيها فاكتفت النهوض حاملة حقيبتها الخالية من كتاب أستاذها الوقح والذي لا تعلم كيف اختفى. تارة تتمنى أن تجده لتحضر حصته ولا تضيعها فترسب بمادته وأخرى ترجو بقاء استتاره فلا تضطر حضور الحصص ورؤية البغيض ذي القلب الأسود.

زمت شفتيها كي لا تهوى بجب البكاء خاصة أن الطالبات خرجن من الفصول. صارت تحت مرأى منهن. لا ترغب إبصارهن ضعفها فيعايرنها واصفات إياها بطفلة حمقاء منتحبة.

رأته على بعد قليل منها. ألقته نظرة حارقة وقد نسيت لبرهة أنه معلمها. ركضت تاركة إياه قبل أن يحرك شفتيه راميا حروفه العالقة لتترك المدرسة نهائيا وزادت حركة وسرعة قدميها فشابهت العدو بماراثون لكن الجائزة ليست مالا بل حياة وروحا بدلا من السابقتين الفاترتين.

قصد إعادة كتابها صابا حمق العالم بعقله غير منتبه أنه سيكون نذل وسارق بنظرها! يحمد ربه فغضبها أعمياها عن كتابها الذي بيده لتسرع تاركة إياه قبل أن يرتكب فعلته.

رفع يده الأخرى ممسكة الكتاب ينظر لاسمها متفحصا حروفه وهو يتخيلها أمامه.

يجلس فوق عدة أقفاص خشبية متداخلة لتتحمل قوته وظلمه وجبروته قبل جسده.

تملل منتظرا الرسول المبعوث للقرية المجاورة كي يعلمه أي الأراضي أفضل وأنقى تربتها رطبة يبتاعها فلا يخسر ثمنها.

نفذ صبره وقد تأخر اللعين فأغمض عينيه دقائق معدودة ظهره مُقوّص لشدة الظلمات المحمولة وحقوق الناس المسلوبة.

كل مزارع ترك ما بيده ما إن قدم وجلس بمنتصف الأرض حيث يعملون رهبة. تجمدت أجسادهم ذات البطون المنتفخة تبرز وتختفى وتعاد الكرة لفرط ارتعاد أنفاسهم فغدت عجوز تعرج مهرولة قبل أن تتقيد بفم صاحبها.

تفرق جفناه لمّا سمع وقع أقدام تضرب الأرض مقتربة. مثُل صاحبها أمامه تتلاحق أنفاسه في سباق النجاة يخبر سيده متلهفا عن رؤيته أرضا واسعة ذات ثمار ناضجة وألوان بهية بوسط القرية. انفرجت شفتاه ملقيا عملة معدنية كبيرة الحجم ضئيلة القيمة بوجه الرسول جائزة لأخباره السعيدة ثم ركض بأقصى سرعته متوغلا بأنحاء القرية أكثر وأكثر.

ما إن اختفى حتى تلهف الرسول التشبث بمكافأته. غمسها بعباءته المتسخة يطالع من حوله مبتسما في فخر وكبرياء فبتلك العملة ضمن الحصول على أعلى أجر بينهم. قذفه البقية بنظرات حسد متحسرين. ليته اختارهم رسولا بعدما كانوا يتراجعون وجلا أن يقع الاختيار عليهم!

دلفت غرفتها بعدما تناولت غداءها المخبأ بغرفة شقيقها وكعادته راقبها وابتسامته الحانية غلبته متقمصا دور والدها الحبيب. لا تتذكر ملامحه كثيرا لكن شقيقها ووالدتها يصفانه لها فيحيك ذهنها خيوطا رفيعة يشغل خيالها بأكمله يكون صورة لوالدها الحبيب كما نَعَتا لها.

لازالت تشعر بتلك اليد الدافئة تربت على ظهرها فتنتقل الحرارة إليها في سلام تندثر داخل أحضانه.

تتذكر طيف شخص يركض ناحيتها هي وشقيقيها وبيده حقيبة صغيرة ممتلئة بالحلوى فيندفعون ناحيته كل يطوقه ويلتقط نصيبه فرحين بما نالوا.

لم تأتيهم والدتهم يوما شاكية أو باكية بل كان نعم الزوج والأب لا يسمح لدمعة الهبوط رغم قسوة والده وأخيه.

كان يخاف عليهم فيحذرهم ألا يتركوا غرفهم لحين عودته من العمل بإحدى المصالح الحكومية كي ينفق عليهم حلالا.

أسندت ذقنها على كفها وجهها عاد احمراره بعدما حاولت إخفائه كي لا تثير شكوك أخيها حولها.

تتعمق بما مرت به حتى تلك اللحظة مرورا بما حدث بالمدرسة.

ما إن وصلت لتلك النقطة حتى نهضت حائرة متيقنة أنها تأكدت بحيازتها كتاب مادته. لكن أين اختفى؟

أيعقل تخيلها وضعه بحقيبتها؟!

التفت حول نفسها وعيناها تتجول بالغرفة محاولة إيجاده حتى اتجهت لبقعة تبدأ البحث منها.

مرت دقائق طويلة لم تتوقف يداها عن البحث. زفرت يائسة ولم تصل لجديد.

هزت كتفيها غير عابئة قد تكون حكمة الله ألا تحضر حصصه وقد أدخلها رأسه وسيحرص على إحراجها يوميا.

سوف تستذكر مادته وقت راحتها من كتاب طالبة صامتة تجاورها بالفصل لم تحدثها يوما لكن يبدو عليها الطيبة.

انفجت ابتسامة انتهبها ثغرها رغم تعثره باختلاس الروح بها تقنع ذاتها أنه الحل الأمثل لمعضلتها.

جذب اللجام عنيفا مبصرا عجوزا على بعد امتار عديدة يحاوطه ثلاثة صبية يساندونه بالسير والضحكة على وجوههم ممازحين بعضهم. بدا أنهم أولاده فانقبض صدره وتشنج فكه. لأول مرة خيم الحزن عينيه واسود وجهه متذكرا حالته.

مهما تعددت زيجاته سيظل شبيه رجل لا ينجب. يتذكر منذ سنوات عندما تخفى بوشاح وذهب لحكيم القرية متسائلا عدم إنجابه رغم تعدد زوجاته.

صاعقة حلت عليه يستمع لكلمات الطبيب أنه عقيم.

النقص والحقد تملكاه لينقض على الحكيم يخنقه صارخا بوجهه يتهمه بالزور زورا!

وقف أسدا ثائرا وفرسا جامحا فك لجامه ينتظر اقتراب أحد لينتشل روحه.

كز على أسنانه وعروق كبركان مشتعل نافرة.

ثانية واحدة وخرجت زمجرة عالية صاخبة محتجة لحظّ عاثر لم يرسو جواره يوما. تصدع جبل عظمته كأمنيته الوحيدة بوريث يعينه يستكمل أعماله.

أفاق على اندسار الرجل بأبنائه عندما رآه. هزأ على حظ العجوز. لو ظل محله هنيهة أخرى لانطلق بجواده داعسا أولاده أمامه يتركه وحيدا مثله طوال حياته.

رحمه القدر ففر هاربا بعزوته تاركا الفرعون وحيدا كعادته.

تقف على أعتاب غرفة "فريال" مترددة حتى قطعت خيط ارتباكها برفع يدها تطرق الباب. يكاد يسمع طرقها بصعوبة لكنه وصل لمن أذنت الدخول.

قبضت على يدها تزيل توترها ولأول مرة ستتعامل بشكل تام معها. دلفت "بلقيس" الغرفة مخفضة الرأس قائلة في حياء:

- أريد الصلاة اليوم ولم أجد حجابا يسترني كاملة. الوشاح الوحيد الذى أملكه يشف لا نفع منه.

طال الصمت فرفعت بصرها بطيئا. واجهتها ابتسامة لطيفة من "فريال" مشابهة بسمة والدتها المطمئنة فلم تجد بدا من مبادلتها وثغرها يتعثر بطريقه لفرط العبوس والعويل. أن تبتسم ليس بالهين حتى لو خلت من الروح والمرح فالاصطناع بات هو الآخر صعب المنال.

نهضت "فريال" عن فراشها بعدما رحبت بالمسكينة الخائفة أمامها مرتبكة كطفل صغير ارتكب جرما فانتظر عقابه مروّعا.

قصدت خزانتها تفتّش عن حجاب بضراوة كافية لمبارزة شعر "بلقيس" الغزير. تجعيداته تجعله يثور على الأقمشة الضعيفة يردعها أرضا.

- هاك!

صاحت بها مغتبطة عندما وصلت لمرادها. واحد طويل عريض ثقيل القماش يفي بالغرض لتنهض مقدمة إياه لمتهللة الوجه خلفها بنيل مرادها.

التقطت الحجاب شاكرة إياها وكادت تفر فإذ بكلمات "فريال" درأتها:

- أخبرني أخي أن عمي سيغيب ليوم كامل. ما رأيك لو تقضين الغد معي لنتعرف على بعضنا بعض؟ نحن الوحيدتان بعمر متقارب هنا.

التفت "بلقيس" وقد راقت لها الفكرة فأومات بلهفة تتبعها شاكرة. بدت الطوبَى راقصة محترفة تتمايل في تأليب بمقلتيها اللامعة. سوف ينقلب روتينها بصداقة مع فتاة بمرحلتها العمرية يتسامرون خلسة كلما منحهما القدر وقتا.

اتفقا قضاء الغد بغرفة "فريال" ثم انصرفت "بلقيس" تكاد تقفز كالأرنب فرحة والحجاب يهتز بيدها في تناغم والأخرى تحكم الوشاح على رأسها العملاقة لفرط شعرها المتمرد بمثابة ملكة مفقودة لم تتحمم سنواتا فتكاتل شعرها في شجرة صادرت رأسها!

تسمرت محلها تستمع لطعنات كلماته بظهرها.

- أهلا بأميرتنا الصغيرة! كم أشفق عليك يا فتاة!

تنهدت عميقا والتفتت بجسدها. زالت المسافة بين حاجبيها وعزمت الخروج عن صمتها قليلا تتشجع كما أوصتها والدة الماثل أمامها:

- لا أحتاج لشفقة أحد تحديدا إن كان أنت!

ضحكة قصيرة ساخرة صدرت عن ثغره ورفع حاجبه الأيسر فالغزال صار ذئبا وذلك يروقه حقا!

- بل تحتاجين الشفقة خاصة بابتسامتك البلهاء منذ أن ذيع خبر غياب جلادك ليوم، أتعتقدينه مفرحا أيتها البلهاء؟!

كزت على أسنانها وفاض بها الكيل لتتحدث بنبرة يشوبها الحدة:

- لست بلهاء ثم ما دخلك أسعد أو أبكى لا شأن لك؟

رفع يديه كحركة استسلام لهجومها الحاد قبل أن يميل جانب فمه بابتسامة خبيثة:

- جئت أحذرك فقط مما ستلاقينه اليوم، فلن يرحمك معوضا غيابه بالخارج.. استعدى يا عروس

أنهى حديثه العابث ومضى لغرفته. لمّا سمع صوت طرقات خافته بالغرفة المجاورة لخاصته والتي تملكها شقيقته خرج ليراها تدلف للداخل.

انتظرها، أراد تحذيرها لتعد العدة ولا تصدم بما سيجرى لها لكن كلماته انقلبت من بلسم لسم يثير رجفتها.

يعلم أنها لا تستحق ذلك منه لكن ما باليد حيلة كلما نظر إليها يراها سعادة ومتعة المبغوض. لا يجد لسانه سوى يقاتلها بكلمات تسقطها صريعة ثم يتملكه الندم سرعان ما ينأى ثانية بتذكره حبور الفرعون وقد ألقى شحنته بها فيخرج منتعشا مرتاح البال بعدما كان معكر طوال شهر عزوبيته.

وضع يده على مقبض بابه يستشعر السكون ليعلم أنها مازالت خلفه تفكر بكلماته وبالطبع تتصبب عرقا فأقل شيء يخيفها. كلماته ضربت قلبها سهاما لترتعش يداها كسائر جسدها.

عقلها الأنْوَك قد قبض على مقاليد الحقيقة أخيرا. استنبطت أن راحتها غدا ليست مجانية بل ستدفع ثمنه الباهظ اليوم ينسيها الغد وما كانت تخطط له من سعادة وسكينة تجمعها لتعيد طفولتها ومراهقتها المهدورة.

ترتعش هلعا كالانتفاض الطفيف بحلقها. تخفق بابتلاع غصتها. جفلت إثر صوته بعدما ران الصمت.

- مستقبلك مرهون بين يديك ومازالت يد المساعدة ممدودة إن قبلتها قد تلقين النجاة أو تستمرين بالهلاك. الأمر يلزمه المغامرة.

- كيف ستعينني؟

قالتها بلا تفكير فبحضرة الجبانة تخضع الحصافة، تلذذت بسمته بشوائب النصر ولمعت عيناه مجيبا:

- قد تظنينها هينة لكن صدقيني ستنجيك من الكثير، تعلمت من والدي بعض الحركات القتالية البسيطة وبث الشجاعة والأزْر في النفوس. لن أبخل عليك بها، أستطيع تعليمك كيف تدافعين عن حالك عند زيادة أذيتك.

- لم أرك تفيد نفسك بها.

تنبهت فمال رأسه تجاهها هامسا بنبرة كادت تشوبها الحسرة:

- لست وحدي، أي خطوة آخذها قد تثير حفيظته على عائلتي لكن أنتِ.. من سيعاقَب لأفعالك.. لا عزيز عليك ولا لديك.

- وإن أثرت غضبه وأوسعني ضربا؟

انتاغ قبل قوله:

- أترينه لا يفعل ؟!

كلماته مقنعة. طالما تتعرض للضرب والوَصَب بالأساس فلِم الضعف. فليلهب شجاعتها المكنونة. قد يتثأثأ منها ويتلاشى بعض الوطء بدلا من استسلامها ليده الباطشة أسفله.

أومأت وقد خضعت لفكرته. ابتسم خفية وأبدى الجمود قائلا:

- إن فقدتي رباطة جأشك فتظاهري بها، أحيانا يجدي التظاهر نفعا. بأي وقت تريدين أن نبدأ إعدادك.. تعلمين غرفتي.

أنهى الحوار واتجه لغرفته متهللا لما حققه. أضرم فتيل رغبتها وتعلقها بالحياة لتوافق توّا على مساعدته.

رأته طوقا يُنجي
ففترت أن تمزقه يُردي.

إسراء عبد المنعم

في مكان حديث العلن نجد شابا بباكورة العشرينات افترش سرير صلب تهالك وبيده كتاب مدرسي. يتعمق فعلته وكيف ينجو من أفْنه عندما خبّأ الكتاب لينتقم بلا نزاهة منها.

طالع زوايا المنزل المتكون من غرفة واحدة لا تملك من المتاع سوى القليل. يتبصّر الغد وكيفية إصلاح ما فعله دون إحراج نفسه.

تفحص الكتاب بيده ونظراته حائرة. انعقد حاجباه وتغضن جبينه ألما. أقسم ألا ينام إلا ومعه النجاة. يصل لفكرة مناسبة تنتشله من الحرج وتنتشلها من الحزن الذي أوقعها به دون قصد بل الأحرى تعقّل فحرّر لآلئها للمرة الثانية. حنّ قلبه وانقلبت ملامحه حزنا لأجلها وثورانا على فعلته. عزم تركها بحالها قدر المستطاع. يكفيها التنمر الذي تتعرض له يوميا. لن يزيد أيامها سوءا وينقلب عليها هو الآخر.

فليكن دواءا لدائها ممن حولها.

انقشع النور وخيم الظلام على القرية بل العالم أجمع. اسودت الغيوم مشاركة الكون ظلماته.

ركضت الشمس هرعا حتى اختفت عن الأنظار ليهيمن ضوء القمر الشارد ونجوم صغيرة تزين السماء كحبات لؤلؤ تناثرت على ثوب شديد السواد تلحفت به السماء لتصبح شابة فاتنة الجمال ترهب الناظرين تكاد تقتلع عيونهم لشدة جحوظها برؤياها تتمايل بتحرك البشر. مشهد بديع بفعل الخلاق.

ليلة اكتمل بها القمر على حساب البشر فنقصت حياتهم وأعمارهم وروحهم تُسلب رويدا رويدا كحال الصغيرة المرتعبة ماثلة أمام من تواقحت نظراته يزيل جلبابه ملقيا هوارته على الفراش يستعملها فيما بعد على جسدها بفنون تلقنها جيدا وأتقنها. لا تغيب عنه خيفة نسيانها فيتذكرها بممارستها على جلد ناعم احمر محتجا لفرط الضربات منتفضا. كأنه يرغب اختراق عصاه جلدها ليختطف ما تملك داخلها والذي لم يتبق منه سوى القليل. لا يمر يوم إلا ويتلف البعض حتى خشيت أن تصبح شتات أنثى يوما وتلقى خارجا تدهسها الأقدام غير عابئة بها.

ازدردت غصتها واستحضرت كلمات "مهران". علمت جيدا مقصده بعذاب مضاعف فملامحه عنيفة قاسية عن كل ليلة مرت دلف الغرفة بها.

وكأن أنيابه أكثر وضوحا. خيل لها فرو يملئه يزمجر عاليا. حاجباه زاد تقوسهما ليلتقيا بالأسفل موضع عينيه الضيقتين وخطوط متعرجة تحيطهما كحراس من الأذى ضاربين بيد من حديد كل من يقترب منهما.

رأته ذئبا يقترب بخطوات فهد وعيون صقر مترقبا فريسته فغدا بشعا.

صاحت لمّا دفعها فتقهقرت في هيعة حتى اصطدمت بخشبة الفراش خلفها. انكمشت حول نفسها كنطفة اكتملت فضاق المكان عليها. لا تجد مفرا سوى الانكماش ملتفة اليدين حول ساقيها وفترت أنفاسها. ازرقت تباشيرها إثر اختناقها وهو يملي عينيه بالمشهد المحبب لقلبه. مال عليها ممسكا كلتي يديها يرجعهما للخلف محاولا جعلها ممددة رغما عنها لكن مقاومتها تلك الليلة مضاعفة وكأنها تحولت من هريرة ناعمة لقطة مشاغبة ذات أظافر حادة تنتشل بها جلد من يحاول أذيتها.

عنّ مرتدا بعدما نشبت أظافرها داخل ذراعه والآخر لاقى أسنانها البتّارة. أكصّ مرغما والتمع ظلامه. اغتاظ مقسما تلقينها درسا لا تنساه.

اقترب ثانية لاعنا والديها فزجرته بقدميها. أنّ محاوطا بطنه المنتفخة متألما من شراستها.

ازدادت غضبا وتلاشى خوفها قليلا عندما ذكر والديها الحبيبين بالسوء لتجد نفسها تلقائيا تدفعه مرة أخرى عنيفا للخلف وتلك المرة خرجت صرخاتها الغاضبة وكلمات "مهران" لا تترك ذهنها مما زادها شجاعة وقوة كما طلب منها:

- لا تذكر والديّ على لسانك النتن.

أضرمت نيرانه ولم يجرؤ من يهينه أو يرفع عيناه بوجهه لتأتي فتاة لم يكتمل ريعان شبابها بعد تهين رجولته وكرامته. ابتسم بشر متوعدا وعدا فهدا يرجمها بأكذوبة مهلكة:

- الحبيبين تخلصت منهما. قتلا بهاتين.

قالها مشيرا لكفيه. فجعت "بلقيس" جاحظة العينان وتهدل كتفاها. انهار العالم حولها وفقدت إحساسها.

كلماته الكاذبة أصابتها بمقتل فخارت قواها. تجمعت الدموع بعينيها التي لم ترمش ثانية لسانها معقود جسدها بارد كجثة هامدة تنتظر دفنها.

لأول مرة تنقضي الليلة بلا صرخات.. بلا حياة.. بلا حركة.. بلا مقاومة.

لعبة أصبحت بين يديه وعجين يشكله كما يريد. متسمرة محلها لا تستشعر جوفها أو ظاهرها. حتى عندما دفعها بقدمه ملقيا إياها أرضا بعد سلب ما أراده لم تئن كعادتها بل ظلت محلها. لم تزد على هزّ رأسها أعلى وأسفل فتحتضنها صلابة الأرض حتى جرحت مؤخرة رأسها لكن جمودها أزال معالم الوَصَب.

مرت دقائق على حالتها حتى سكنت رأسها وعادت كلماته لذهنها.

"إن فقدتي رباطة جأشك فتظاهري بها، أحيانا يجدي التظاهر نفعا. بأي وقت تريدين أن نبدأ إعدادك.. تعلمين غرفتي."

هسيس كلماته تطوف حولها. طالعت النائم في سكينة على الفراش بعدما دمر حياتها لتعزم عما بباطنها.

ستار يتباطأ الهبوط يغشي عقلها وذهنها قبل عينيها وليلتها السوداء. باتت آلة صنعت بيد البشر لتقضي على البشر!

للمرة الأولى يتناولون فطورهم دون إرهاق أرجلهم. رحل الفرعون بمنتصف الليل فعم الجَمَام والجذل الجميع عدا التي تجلس شاردة نظراتها جامدة كأطرافها المتصلبة تلوك الطعام ببطء لثوان فتعاود السكون. يدها تلعب بالطعام أمامها وقد لاحظ الجميع حالتها لكن التزموا الصمت احتراما لخصوصيتها التي يعلمونها جيدا مدركين سبب حالتها.

البرود يحتل ملامحها لولا اشتداد فكها لظنوها صنما بلا روح وللحق هي كذلك. لم تنم منذ الأمس وما إن غفلت لدقائق حتى صفعتها كلماته. تخيلت طريقة قتله والديها بأبشع الطرق وسراب صرخاتهم يلاحقها كوحش غاضب يريد النيل منها.

مشاعرها لا توصف.

يتطلع إليها البعض بحزن والآخر بعيون صقر تستشف ما قد يكون حدث أمس غير الضرب والإهانة يوصلها لتلك الحالة.

أمسكت "فريال" حقيبتها مودعة أخاها ووالدتها. كادت تخرج حتى التفتت بتوتر للصامتة تؤكد عليها قضاء اليوم معها لكن لا إجابة فاجترّت حديثها وقابلها نفس الرد من الصمت. زفرت يائسة وانصرفت حزينة على المسكينة المقاربة سنها بل أصغر وتتحمل ما يفوق قدرتها. فنّدت أفكارها فلا ينقصها حمل هموم غيرها لتركز بالطريق الشاق لمدرستها داعية ألا تقابله اليوم.

تركت "أمينة" المائدة بعدما ربتت على يد الصغيرة تدعمها لكن لم تتلقى ولو نظرة منها لتهز رأسها حسرة عليها فطوال الليالي القليلة الماضية لم تصل للحافة كاليوم. خطوة أخرى وتهلك الفتاة لا محالة.

انتبه "مهران" لابتعاد والدته فنهض هو الآخر بعدما رمقها. قصد والدته يحملها بالمقعد لأعلى حيث غرفتها.

فتح الباب ودفع المقعد في رفق للداخل ثم قبّل يد والدته التي ربتت بالأخرى على شعره تدعو له الرضى. تبعت كلماتها بتساؤل كاسف على حال من بالأسفل فقابلها اهتزاز كتفيه مبديا جهله سبب ما هي به. أومأت في سلْوَة. أترس الباب وقطع الممر تجاه غرفته حتى تلبّث إثر صوت بارد اقشعر لها بدنه دون إرادة منه.

- أريد القصاص.

انعقد حاجباه ودنا هامسا:

- علام؟!

لاحظها تكز على أسنانها يجزم قرب تحطمها وفكها متشنج لشدة الموجدة.

- القصاص لكل ما انتشله.

- ماذا انتشل؟

رفعت أنظارها تجاهه وطال الصمت حتى أشاحت بصرها عنه ليعاود سؤاله فلم تجب. تنهد موقنا عدم رغبتها الحديث والتوضيح ليقطع الخطوات المتبقية بينهما قائلا:

- خُذي ما أخذه، قابلي يده بيدك، إن ضربك أوسعيه ضربا، لا تكوني ضعيفة، لا تكرري فعلتنا عندما خضعنا فازداد جبروته وسطوته علينا، أظهري قوتك وجبروتك أنت الأخرى، انتقمي لكل أذى تلقيته بنفس الطريقة التي أذاك بها، القصاص بالمثل.

- بالمثل؟

قالتها وضاقت عيناها شرا ليبتسم بما هو أشر مؤكدا:

- بالمثل.

أومأت له تدبر داخلها كي تنتقم لفعلته بما يماثلها تحت أنظار من لا يعلم حجم الجحيم ولهيب النار الذي حرره تحت سطوة رغبته برؤيته متضايقا قانطا حياته كما جعلهم يمقتون خاصتهم.

طفلة ومراهق بأفكار فقدت العقلانية وروح الانتقام سيطرت عليهما. ينقادان للهلاك متسعي الثغر نشوة واهمين جاهلين ما ينتج عنه من عواقب وخيمة.

منصتة لمعلمتها وعيناها تتنقل بينها وبين كتابها بتركيز تام حتى جفلت إثر دخوله الفصل. نهض الجميع عداها هي لهول صدمتها. لا حصة لمادته اليوم لِم دخل قاطعا حصة غيره؟!

لاحظ عدم وقوفها فتغاضى فعلتها. خطا صوب المعلمة بعدما أشار للطالبات بالجلوس. طالت همسات بينهما ثم أشارت المعلمة إليها بعدما أومأت له تعطها الإذن بالخروج معه فقد استأذن أخذها.

نتأت عيناها وارتبكت ليرمقها نظرة أخيرة ثم انصرف ضاربا أذنيها بأمره الغليظ أن تتبعه لغرفة المعلمين.

انتابها الفزع من تدبيره حيلة أخرى ليحرجها أو الأسوأ أن يعلمها رسوبها بمادته.

أتعبها التفكير لتتوقف عنه مرغمة عندما مثلت أمام مكتبه، تطلع إليها صامتا وهي تنظر للأرض. أبصر يديها التي تفركهما توترا فابتسم آسفا على كم الخوف والحزن الذي سببه لها.

فتح درجا بمكتبه وأخرج ما أخذه خلسة يضعه على المكتب أمامها. جفلت من صوت ارتطام شيء بالمكتب فرفعت عينيها بفضول لتجده كتابها، لاحظ التماعها اغتباطا تلتقطه مبتسمة ثم صاحت أنه كتابها فبادلها بسمة خافتة مؤكدا حديثها:

- وجدته أسفل مقعدك بالفصل بعدما خرجتي.

لم يجد مفرا من الكذب حتى لا ينقل حرجها إليه. لاحظ نظراتها الضائقة المعاتبة تأذن الخروج ليتلهف معترضا طريقها والتف حول المكتب بارتباك وكلمات فوضوية:

- حسنا، فقد أردت القول أني حقا آسف لم أقصد إحراجك أو التدخل بما يخصك لكن أسئلتي نابعة عن خوفي ورغبتي بطرد الغمة عنك. فقط أردت المساعدة وأنت فهمتني بشكل خاطئ.

اهتزت معالم وجهها وغدت متوترة تنظر لكل إنش بالغرفة واحتضنت الكتاب لصدرها مبللة شفتيها. أهبطت بصرها هامسة في خفوت شديد استطاع التقاط كلماتها بصعوبة أشد:

- لا بأس. وأنا أيضا أعتذر لحدّتي بالحديث.

ارتسم على ثغره بسمة لطيفة صافية يردف بنبرة مرحة ينهي بها ستار الحرج المخيم عليهما:

- إذن لا ضغينة بيننا؟

قهقهت وشفتاها تأزرت بكفها كحركة تلقائية التقطها فزادت بسمته لها. أذن لها الذهاب لفصلها حتى لا تضيع شرحا أكثر فأومأت متلفتة تتقصى مكتبه وتنهدات عميقة تصدر منهما في حبور احتل قلبيهما.

يستند على هوارته جالسا على أريكة عتيقة أمام مالك الأرض التي عقد العزم شراءها وملامح غير راضية على وجه الرجل لكن ليس بيده الاعتراض على السعر الزهيد المعروض على أرض تستحق ضعفها. يرتعب الرفض فصيت الفرعون يصل للقرى المجاورة وعندما استعان بعمدة قريتهم تقهقر آمرا إياه ألا يخلق معضلات لا تنتهى إلا بسفك الدماء. ها هو يجلس أمامه متهدل الكتفان يختم العقود لبيع الأرض ويتلقى المال القليل بغير رضى. عائلته تختبئ بالغرفة يولولون في خفوت مرتعبين متحسرين فقدان أفضل أراضيهم.

عدّل عباءته السوداء المفتوحة وأشرق جلبابه اللامع يراقبه يختم العقود بابتسامة راضية ليأخذها سريعا يختمها هو الآخر فتمت البيعة كما أراد.

بارك له بصوت أجش ثم قاطعه ضجيج فعقد حاجبيه ووضع الأوراق بجيبه ناهضا مع الرجل خارج البيت. تلبّثا متسعي الأعين.

تضافر أهل القرية أمام المنزل قابضي اليد على ما يحملونه ومعالمهم لا تبشر خيرا. نظراتهم الغاضبة تخترقه مجعدي الجبين مشدودي الفك.

التفت لصاحب الأرض سابقا متسائلا عن الجم الغاضب فمط شفتيه جاهلا.

زال جهلهما بصياح أحدهم:

- لن نسمح دخولك قريتنا فتفسدها كما أفسدت خاصتك.

انتاغ مستهينا قوله فاقترب من جواده يفك الحبل المعقود بصخرة ضخمة ليمتطيه صارخا هو الآخر بجمود:

- ليست حثالة من تملي علي ما أفعل.

لم يكد ينهي حديثه حتى عنّ بعدما قُذف بضعة صخور صغيرة أصابت أطرافه. لم يحتمل الصمود فخر أرضا.

التفت للجحافل مزمجرا منتفخ الأوداج حتى بارزته مقلتاه للخروج ما إن علت الأيدي الحاملة صخورا وقطعا حديدية يركضون صوبه يلقونها عليه ومن تفرغ يده يخرج من جيب جلبابه المزيد.

هرع الرجل في انزعاق لمنزله وأترس الباب عليه ليترك من يضع يده فوق رأسه والصدمة تتملكه. كاد ينهض ليأخذ جواده هاربا يتوعدهم داخله فهاله الحصان وهو يرفع الجزء الأمامي منه يصهل وجعا وقد تلقى هو الآخر بضع ضربات ففر ممن أذوه مستترا عن الناظرين.

تنفس بأوج الوجل لأول مرة يئن تارة ويصرخ تارة أخرى. المقذوفات لا ترحمه ليتلهف الاعتدال ما إن دنوا كثيرا وهرول بأقصى سرعته بينما الجميم لا ييئسون من اتباعه.

زمجرات وصرخات متتابعة يتخللها الألم وكل ضربة تغوص داخله تاركة أثرها فتنزف دما يلاقي القليل مما صابه للكثير.

ولجت "بلقيس" بخطوات هادئة وابتسامة خافتة لغرفة "فريال" التي عادت للتو من المدرسة تبعتها بحجرة شقيقها تتناول غداءها وما إن جلست تستريح حتى طرق الباب لتبتسم في اتساع متيقنة كونها "بلقيس".

مسرّة عارمة حطت عليها بعدما ظنت أنها لن تأتي إزاء حالتها اليوم صباحا. أفاقت عليها واقفة أمامها مرتبكة لتأخذ يدها تجلسها برفق جوارها على الفراش تزيل حجاب مدرستها الأبيض ثم قالت بابتسامة متسعة:

- كيف حالك؟

أومأت "بلقيس" واكتفت "فريال" بها كإجابة مؤقتة حتى تعتد عليها.

أمسكت يدها وهي تعرف نفسها: اسمها بالكامل وعمرها وما تحبه وما تمقته متغاضية عن كرهها لعمها حتى لا يلتهب جرحها.

ضرعت الشمس وضوء أحمر طاف بالسماء كالشفق بينما "فريال" لا تكف عن الثرثرة عن حالها وعائلتها وماضيهم المؤلم وبين الفينة والأخرى تتلقف يد الصامتة بحماس عندما تصل لحديث شيق كيوم قضته بالمدرسة بلا حرج أو آخر مليء بالمرح في حياة والدها ولشدة سكرتها بالحديث الحلو الذي لم ينبع يوما حدثتها عن معلمها "عصام مختار" وأفعاله الغريبة وصراعه الذي أنهاه باعتذار مع مواضيع عدة أخرى ظهرت من العدم أو كانت مقيدة بقضبان صدرها لا تجد من تنطلق لآذانه دافعة ما داخلها حتى وجدت الصغيرة المرتبكة أمامها لتلقى كل ما تحمله دفعة واحدة طلقات لكنها لينة كحلوى المارشملو ناعمة تدغدغ بشرة الجالسة جوارها منصتة في اهتمام وابتسامات متتابعة تظهر تضاعف ما قبلها فتزداد وسعا. ارتحلت الدماثة إليها وزال الارتباك عنها لطرافة واجتماعية "فريال" التي ظنتها وحيدة مثلها. انتقلت الثرثرة إليها تبدأ الحديث بقلب مفتوح يخرج ما داخله هو الآخر تقص عليها بحنين لوالديها وشقيقتها الصغيرة تخبرها مدى الحب الذي كان يعمهم رغم الفقر والكلل لكن بنهاية اليوم تؤخذ بأحضان والديها فينسون همومهم ويستقبلون يوم جديد برحابة صدر وصبر ونشاط متجدد. اندمجت بالحديث تعتصر عينيها تعض شفتيها تخبرها مدى الألم المتجرَع على يد عمها وأنفاسها تعلو. التشنج احتل جسدها لتندفع "فريال" محتضنة إياها تربت على ظهرها فاستعبرتا متمنيتين التؤدة والسكينة.

تزحزحت "بلقيس" مزيلة دموعها رافضة الانكسار والبكاء مرة أخرى يكفي ضعفا وهزيمة فلتستقبل النصر والأمل.

عاودت الابتسامة مبدّلة الموضوع ضاربة كتف "فريال" بخفة وابتسامة خبيثة هامسة:

- وما موضوع "عصام مختار" ذاك؟!

سدرت ونهضت عن الفراش تفرك يديها توليها ظهرها قائلة:

- لقد أخبرتك.. أراد مساعدتي ورفضت فوضعني برأسه لكن اليوم أدرك خطأه واعتذر ناهيا الجدال.

- وهل معتاد أن يعتذر معلم من طالبته؟!

برحت الفراش هي الأخرى تقف خلف المضطربة لمواجهتها بما أنكرته دوما. أسندت "بلقيس" رأسها على كتف "فريال" ضاحكة في مرح فأبعدتها في ضيق متمتمة:

- ما مقصدك "بلقيس"؟

مطت شفتها السفلى عيناها تدور بالغرفة متصنعة الحيرة:

- أقصد هناك سر وراء الموضوع.. من يعلم قد يكون.. معجب بك؟!

شهقت في صدمة وأجابت بصوت حاد مكتوم:

- تأدبي "بلقيس" إنه أستاذي!

- لديك أساتذة كثيرون نساء ورجال لِم اهتم وحده أن يساعدك ويزيل حزنك ؟! ببساطة لأنك تعجبينه ومن يعلم قد تكونين تبادلينه دون علمك.

تجعد جبينها واهتاجت من وقاحة الصغيرة أمامها تنفي التهمة الملقاة عليها:

- "بلقيس"! ليس بيننا سوى الاحترام.. انزعي أفكارك البلهاء عنك وإلا خاصمتك

- حسنا حسنا آسفة.

تشرب وجه "فريال" بالحمرة حياءا فأصبحت كفاكهة ناضجة تنتظر قطافها. عادتا للحديث مرة أخرى بعدما أقسمت "بلقيس" عدم ذكره مرة أخرى لتنسى "فريال" خجلها بعد دقائق بعدما انخرطا في أحاديث مديدة قبل أن تغرب الشمس تماما فتضطر تركها بعد يوم جديد بابتسامة دامت أكثر من ساعة على ثغريهما وكل قرر تناسي ما يشغل عقليهما الصغير بعدما فشلا في النسيان.

عندما يشتد التجاسر؛ يرتد التحاور.

إسراء عبد المنعم

خطى مبعثرة دوّت بالأرجاء وأصحابها يرفعون عصي التحفت نهايتها بقماشة مضرمة ليروا ليلا يفتشون عنه. فشلوا في العثور عليه وقد تقصّوا قريتهم. ارتسمت الدعة على بعضهم لخروجه والبعض خائف اندثاره بمكان ما داخل الأراضي عالية المحصول والأخير عاقد العزم مطاردته إذا مست قدمه القذرة إنش من أرض قريتهم. بيتوا أمرهم على الأوبة لمنازلهم يريحون أجسادهم قبل أن يعود الفرعون غدا بحراس ورجال كما اعتادوا منه. يعلمون جيدا مدى إصراره الذي سيودى بهم هلاكا إن سهروا الليل فيضعف جثمانهم عند لقياه. سوف يستريحون ليعدوا عدتهم بالغد.

بدُبر القرية مدرج بالدماء أنفاسه متقطعة والتعب انتشل اللون من وجهه يراقب في هول تقهقرهم. زفر ببعض الأناة ويده تتحرك في عشوائية لكل إنش بجسده يؤلمه وجرحت جراء أيديهم التي سيقطعها غدا يلقنهم درسا عظيم العقاب لن ينسوه يوما إن أمر الله لهم الحياة.

نهض يئن وجعا وركبته كورق تمزق لفرط سقوطه طوال ركضه. يعرج كعجوز فقد عصاه منحني الظهر تصطك أسنانه سخطا تكاد العروق تنفر من مكمنها.

مرت ساعات طويلة يسير بنفس الطريقة وشفتاه جفتا وتشققتا لشدة الغلل. نبعت ابتسامة خافتة والرؤية مشوشة عندما أبصر قصره غير منتبه لمن رأوه بتلك الحالة ليتعالى التهامس بينهم بعيون شامتة وأخرى حائرة.

وصل لقصره يطرق بوابته عنيفا فأسرع الحارس يفتحها متسع العينان لحال الفرعون الذي لم يرها أحد هكذا منذ ولادته. هل انهار الجبل أخيرا؟! أم تهدمت الشَعفَة وبقي السفح؟!

أنصتت للضجيج بالخارج وصرير باب القصر يفتح لتغمض عينيها في سلام متأهبة لحظة دخوله بعجرفته. تريح بالها حتى لا تتعثر بمخططها. تسترق السمع لخطوات تقترب حتى فتح باب غرفتها ودلف.. لكن وقع أقدامه بها شيء غريب!

صوتها لا يدوى كالرعد سابقا بل تستشعر ضعفها وضآلتها. رفعت بصرها تجاهه فشهقت في وَهَل. هجرت فراشها -شاهد تمزقها- ترى قسماته رُدمت تحت بقع دامية لولا ملابسه وعيناه المنقوشة بذهنها لطول النظر إليهما متوسلة عطفهما لظنت أنه ليس هو.

من تجرأت أوصاله المرتجفة أن يفعل به هذا؟! سلمت يداه وسلم عقله الذي دفعه غير مهتم بعواقب لن تكون في صالحه أبدا.

اضطربت وهو يقترب بتعرج ثم هوى أعلى الفراش فانكمشت للخلف تلقائيا.

راقبته يزفر محاولا فتح عينيه قدر استطاعته هامسا بأرق:

- ماء.

انتاغت حينما تحررت من قنينة صدمتها بمظهره الذي بصالحها. رفعت رأسها بطيئا تخترق نظراتها السقف العائق بينها وبين سماء لطالما رثتها فبات حقها أن تشهد لآلئ فرحتها. طافت دمعة على خدها فتلتها صاحباتها ونتوء طفيف يترجرج بعنقها وهمست:

- تطالب النجاة وقد حرّمتها على الجميع؟!

احتضن الإخفاق محاولاته للنهوض وجسده لا يطيق التحامل ليظل ممددا واكتفى بالزمجرة. رغم ضعف موقفه إلا أن جبروته لازال بقوته.

- أنسيتي نفسك أيتها الوقحة! أنا لا أطلب، الفرعون يأمر وتنفذون منكسي الرأس معقودي الألسن.

تتابعت ضحكات هازئة ونظراتها أفضت الروح منها. توحدت دموعها في خيوط رفيعة كللت وجهها تستحضر الذكريات داخلها.

جابت داخل أيام مقضيّة مع والديها وضحكات شقيقتها المرحة عندما تدغدغها تداعب أذنيها فتشعر بالدغدغات تنتقل إليها لتبتسم في خمول كمن تجرعت كأس خمر أذهب عقلها. تنسج أحلاما وأياما تمنت دوامها. طيف والديها وأختها المحببين لقلبها لا تزول عنها. صارت مغيبة العقل مسيّرة الجسد ويدها تتجه بطيئا لجلبابه كأفعى تتمايل لتنقض على فريستها.. وقد كان.

أحكمت قبضتها وأخرجت يدها بعدما كانت فارغة أصبحت تحوي نصلا حادا يعكس لمعان ضوء القمر المتسرب من شقوق النافذة بالغرفة المظلمة ترفعه لأعلى مزامنة مع تفرق جفنيه بإرهاق و.. صرخة صاخبة.

إرثه بغرفته كانت صرخته قبل أن يغوص النصل بجسده الملوث.

طوت الطريق للخلف فأصبحت تلاصق الجدار. لمعت عيناها وتبلل ثغرها. لا تعلم أتنحب لجنونها أم تسعد لخلاصها؟! تقهقرت قوتها وهوى جسدها ثم ضحكت عاليا عقلها مغيب عما حولها. إيقاع سوطه يطوف بأذنيها وكفان امتدا يدميان جسدها. تحرك رأسها صوب الساكن على الفراش عدا شفتيه المتحركة يئن بصوت مكتوم لا يقدر الحديث تحت أنظارها المتلذذة. للمرة الأولى تستشعر حلاوة القصاص من العذاب تتمتع برؤية الدماء.

رفعت بصرها تجاه الباب الذي دُفع إثر انتشار صياح الفرعون وضحكات الصغيرة المدوية بالأرجاء. كانت الفاجعة. رأوه أعلى الفراش ونصله اخترقه ودماؤه نهرا خُيل لهم تلونها بالأسود.

شهقت "أمينة" وصرخت ابنتها فزعة فهرعتا للاختفاء وجلا.

أما "مهران" فقد تسمر محله والخادمات يصرخن والحراس يركضون للداخل حاملين الفرعون خائفين العقاب إن حيي.

كصنم فقد النطق والوعي أنفاسه متقطعة مستقر البصر على الجثة. لا يصدق أحقا تخلصا منه للأبد؟! أحقا طفلة فعلت ما خشوه دوما؟! تشجعت لترتكب ما تنكّب عنه يوما.

أفاق نصف عقله على همسها المجنون الخافت ترمقه بعيون ناعسة وشعرها قد غطى وجهها بالكاد تظهر خيوط من عينيها وأنفها:

- القصاص ، الثأر بالمثل.

انطبق جفناه واجترّ كلماتها الملقّنة من قبله بينما قلبه ضجّ (أنت من أوصلتها لحتفها. أنقذتكم وأُهلكت حالها، خلصتكم من قيود القديم فتلقى الجديد، أنهت عذابكم لتشرع بنوع آخر)

يطرق بإصبعه مكتب عمه سابقا والذي امتلكه حاليا بعدما دفن بلا جمهرة. لولا إصرار والدته على تسلم جثته لتركها بالمشفى. خضع لأمرها فتسلمها ملتفة بوشاح أبيض في تقزز. أحس بضربات قلبه تتراقص فَأْلا وبِشْرا. يراه جثة هامدة ملتفة بأبيض فقد نصاعته بمجرد تلحفه به وظلامه تغلب على النقاء كعادته حتى بمصرعه.

رغم رغبته أن يدفنه بنفسه ليستشعر متعة الانتقام والثأر لوالده لكن غلبته الجبانة مما لا يدري وحاجز يحول دون ذلك. أولى رجلا من أهالي القرية مهمة الدفن مقابل مال حينما هرع هو للقصر كمن يفر من مارد. لازال تحت تأثير صدمته يذّكر يوم مقتله مرارا وحالة الصغيرة جواره التي حل الهلع محل الخَبَل لمّا حضرت الشرطة لتقبض عليها. قُيدت ثانية لكن تلك المرة تحت راية العدالة، وأين العدل عندما اغتيلت طفولتها وسلبت براءتها ؟!

عيناها الغائمة حزنا وخوفا تتطلع إليه تستجدى مساعدته ليقابلها بالعجز فما بيده ملكة. أيام وهي بالسجن وقد رفض الضابط أي زيارات لكنه وكّل محامٍ جيد ببعض الأموال الموجودة داخل غرفة المقتول لحين الانتهاء من اللوازم فيتسلم إرثه هو وعائلته.

بصعوبة استطاع المحامي تدبير زيارة قصيرة بعد ساعتين ليراها يطمئن عليها ويطمئنها عل شعوره بالذنب أنه السبب يروح بعيدا عنه فيتنيّح.

رفع بصره تجاه اللوحة بالأسود كاملة تغطي أسفلها صورة الفرعون الهالك أخيرا متخلصين من سمومه التي بثها بكل إنش بالقرية وكل جزء بالإنس.

أخذ طلاء أسود ودفن صوره المتقنة الرسم أسفلها كما دفن جثمان صاحبها تحت التراب. آب لخالقه وسوف يحاسب على أعماله الفاقدة للصالح منها.

نهض عن المقعد الوثير يبتلع غصة مريرة يحاول تعويضها بنظرة مفتخرة واثقة وملامح مشرقة. شقيقته محقة عندما حدّثته عن أُزوف الفرج وها هو حلّ عليهم ثوبا باتوا في سترته.

تقصّى مكتبه وصعد لأعلى حيث غرفة والدته ضعيفة الجسد شاردة البال قلقة عمن تركت القصر ولم تكمل أسبوعا به وعن مصيرها الأسود. أغمض عينيه برهة عندما وجدها بنصف جلسة تستند على خشبة الفراش وجوارها شقيقته التي لم تجف دموعها أو يخف فزعها من المشهد المهيب.

دنا منهما فرمشا متنبهين ليبتسم لهما وافترش قبالتهما.

لم يكد يسكت حتى تلهفت والدته تطالب طمأنتها على حال "بلقيس" تبعتها شقيقته تؤيد سؤالها والفضول والترح غلفهما. مط شفتيه أسفا وقال:

- تبقت ساعتان على الزيارة. سأتجهز لأصل باكرا.

بللت "أمينة" شفتيها وقالت في شجن:

- أستحلفك بالله ألا تتركها، المسكينة لم تعي أن اجتثاثه سوف يهدم ما تبقى منها.

طمأنها ويده تربت على رأس شقيقته المتخفية بأحضان والدتها فبادر الحديث معها:

- ألن تعودي لدراستك صغيرتي؟

نفت بنبرة مختنقة راجية:

- ليس بعد أخي فلنطمئن أولا عليها ثم نتحدث بشأن دراستي.

أومأ آذنا منهما أن يتجهز لذهابه للمخفر وهما تدعوان خلاص "بلقيس" من شقائها.

استندت رأسه على ظهر المقعد يطالع للسقف ثم يغمض عينيه فيقابل الظلام آنفا. متحيّر من غيابها طيلة الأيام السابقة عن المدرسة والقلق ينهش قلبه خيفة تعرضها لنازلة تمنعها عن دراستها أو تكون عليلة. تضايق فحتى عنوان بيتها لا يعلمه. تُرى أين أنتِ "فريال"؟ سؤال يجول بعقله لا إجابة له سوى الزفير في يأس يشوبه قلق عليها.

جفل "عصام" من رنين الجرس المتصاعد. لملم حاجياته وقصد فصلها الخالي منها ليشرع حصة فقدت نشاطها وعيناه لا تبرح مقعدها كمن ينتظر أن تهبط من السماء تجلس محلها فيملي بصره برؤيتها!

ولج مركز الشرطة بخطوات مهتزة رغم محاولاته أن تبدو واثقة للعيان. حدقتاه تدوران بالأجواء والجدران متآكلة تلزم ترميمها. قلبه ينقبض وبدنه مقشعر يزدرد ريقه. تسلل اللون عنه منسحبا. كيف تحملت البقاء أياما وهو لم يأتِ سوى زيارتين عابرتين لدقائق معدودة رافضين رؤيته لها فيشعر باقتلاع روحه؟! بالكاد يمتلك بعض الأنفاس تنجيه حتى يخرج من هنا. وصغيرة بنصف طوله وثلثي عمره قضت ليال طوال هنا!

الممر مظلم يشوبه رائحة نتنة كريهة لا تتحملها أنف وكأنهم نثروا مسحوقا منتهي الصلاحية لا يرحم أنوفهم أو أعينهم المحمرة كمن تبعث دخانا خفيا يحرقها.

هائم بجوفه يتخيل حالتها. بالتأكيد تناقص وزنها وسلبت الحياة منها بعدما ضئل بزواجها. حملق بالشرطي الذي أمسك يده في حدة دافعا إياه لغرفة أشد ظلمة كأنه متهم. كانت للكلمة وقع الصدمة عليه فهزّ رأسه عنيفا معرضا عن ذاك التفكير رافضا الالتفات إليه.

راح ينظر أمامه بتركيز بعدما أُغلق الباب عليه يستشف وجود أحد. أحس بأنفاس ثائرة فقدت حيويتها بدُبر غرفة السجن ليبتلع غصة هلعة. دنا مرتعش الساقان يقبض على كفيه متمالكا أوصاله قدر مستطاعه.

أصبح على بعد إنشات من الأنفاس التي تبين وجه صاحبتها الشاحب. التقط عظام رقبتها وخديها وكأنها تتهيأ للتحول لهيكل عظمى!

رجفة خفيفة سارت بجسده يتفرس النظر بها. باتت كالموتى مطرقة الرأس والجفنان تضم ساقيها لصدرها مرتعبة كحالها بعدما قتلت زوجها.

اضطراب أنفاسه جلجلت بالأجواء. تنهداته الصاخبة نوعا ما ضايقت السكون المحاط بها فانزعجت تباشيرها المسالمة وتغضن جبينها تصارع لتنجو من دواماتها بعدما انتشلتها كوابيس مرعبة عن حبل غليظ يلتف حول جيدها لينفذ قرار إعدام جسدها بعدما أعدمت روحها. اتسعت عيناها صارخة وفزعها تفاقم برؤية وجهه أمامها. ارتدت ملتصقة بالحائط أكثر كمن تشقه وتدفن جسدها بجوفه.

حرّك كفيه أعلى وأسفل لتهدئتها. تهنّفت وبحة صوتها ذكرته بأول ليلة تزوجت بها:

- أغثني.

أطبق جفنيه هنيهة معاتبا:

- لِم قتلته؟

فرغت فاه ذاهلة بأنفاس هائجة:

- ماذا؟! أنت من دفعتني لقتله.

- أخبرتك أن تنتقمي أي تدفعيه عنيفا أو تلطمى وجهه أو.. أو أي شيء آخر يهز عرش رجولته وكبريائه.. لا أن تقتليه.

اصطكت أسنانها ونهضت بضعف تستند على الحائط محتجة:

- الآن تبرئ نفسك.. الآن تتخلى عني.

زفر عنيفا ونبرتها الهائمة الضعيفة زلزلت كيانه ليتنهد مضيفا:

- لا تقلقي لن أتخلى عنك فقد عيّنت أفوكادو للدفاع عنك.

- حقا سأخرج من هنا؟

تغضن جبينه وأطرق رأسه مبديا جهله الإجابة لتنطوي قسمات وجهها وهْنا قبل أن تبث الشكاسة والعداء:

- لن أسجن وحدي. إن لم أخرج من هنا سأشي عليك أنك من حرضتني.

اسودت عيناه الغائرة ودفعها عنيفا صوب الحائط فأنّت ألما. لم يشفق وتهديدها تدق طبل أذنه فتستثير الوَغْر:

- إن فعلتها وافتريتِ زورا أقسم أن أجعلك تتعفنين بالسجن.

استدركت خطؤها فاقتربت منه تتمسك بذراعه متوسلة منتحبة:

- لا لا.. لن أتفوه حرفا لكن أرجوك أخرجني. المكان مرعب ومظلم.. أختنق هنا.

أزال كفها واجما وأشاح وجهه متمتما:
- أخبرتك ألا تقلقي سأبذل قصارى جهدي لتخرجي.

قاطعهما صوت الغفير الغليظ يعلمهما انتهاء الزيارة قابضا على ذراع "مهران" ثم دفعه للخارج مغلقا بإحكام على الجسد الصغير بالداخل.
تطلعت لأثره بعدما رمقا بعضهما نظرات أخيرة حتى توارى فهوت أرضا تخفي وجهها بكفيها صارخة في اختناق تناجي ربها. نحيبها شمل الأركان مخترقا الجدران كما اخترق الألم والزُكّة جدران قلبها فتكدسا به.

آب القصر مشيا على الأقدام رغم امتلاكهم إسطبلا مديدا به جياد بمختلف الأنواع والألوان. اختار المضي قدما كمن يعاقب حاله على كل ما مر. لا يعلم هل ظَلم أم ظُلم أم كلاهما؟ الأمور اختلطت عليه فحملته كريشة تلقيه بعيدا على حافة الهاوية وحيدا شاردا مشردا. تارة يصطف القدر معه وأخريات ضده.

ينساب أمامه حالها المشئوم فتغيم عيناه حزنا كسماء ملبدة بالغيوم تتأهب زيادة الهموم لترديها دفعة واحدة منتحبة. خطوة للأمام ويستعبر أو أخرى للخلف فيستضحك.

يتذكر وفاة الفرعون فيقهقه ملء شدقيه. يتكهن بمستقبل المسكينة فينجرف نحو الشجى والرغبة بالبكاء لكن الرجال لا يفعلون.

سيساعدها قدر المستطاع بل يزيد عليه كي يخلصها وهذا يكفي للتكفير عن ذنبه الصغير باستثارة أفكارها الشيطانية الغير عقلانية غير واعيا أنها طفلة تسلك أسهل الطرق للتخلص من عذابها بإنهائها كليا.

بلغ الضيق مبلغه عندما تذكر تهديدها الأرعن بجر أذياله خلف القضبان مثلها. ساوره الشك والتخشّي فاختلالها قد يدفعها لذلك. لكن هلعها - لمّا أولاها ظهره تاركا إياها وهرولتها تتمسك به راجية - تطمئنه قليلا ناحيتها. لن تصيبه أذى أو تفتن عليه كذبا وهي بأشد الحاجة إليه.

تجاور حاجبيه متعجبا فلفرط شروده وسهوه بلغ القصر وجلس على الأريكة السفلية يضع كفه جوار جبينه متعمقا التفكير. جفل إثر صوت والدته المحمولة من قبل أياد الخادمات وشقيقته ليَهم ناهضا يخطو صوبها بابتسامة مطمئنة لقسماتها هي وشقيقته المحتلة من قبل القلق:

- خير.

قالها ليبث الأمان والثقة داخلهما أن القادم خير يعم عليهم ولم يكد يكمل حتى انتفضوا فزعين جراء جلبة بالخارج تبعها دخول الحارس صارخا لتسارع النساء بإخفاء شعرهن بأكفهن:

- سيدي أهال القرية والقرى المجاورة يتقدمون نحو القصر حاملين عصي ضخمة ومعالمهم لا تبشر بالخير.

شهقت النساء فصاح "مهران" ذاهلا:

- لِم؟

- يريدون حقوقهم التي سلبها المرحوم.. آسف سيدي لن أستطع التصدي للحشد وحدى.

تمتم بها مرتجفا ثم هرع للخارج في ارتياع بعدما وجد جحافل يضم المئات يتقدمون هاتفين بطلبهم حقوقهم وأموالهم التي أخذها الفرعون. كم سروا بموته واتخذوا أياما يدبرون كيفية استرجاع ما كان لهم. عزموا أن يتجمعوا اليوم مقررين الهجوم على القصر وأخذ ما يحويه تعويضا لما سُلبوا كما انقض المقتول على الأبرياء.

- أسرع "مهران" يجب أن نفر وإلا مضغنا بأنيابهم. لن ينتظروا الحديث وقد أكلهم الظلم.

صرخت "أمينة" على ابنها تطوّق ابنتها في تثأثؤ دموعهما تنساب. أطرق رأسه برهة مفكرا يطالع القصر في تيه وتحدث متحيرا:

- وخزانة القصر؟ والجياد؟ والأثاث؟

- أخي أرجوك فلنهرب.. أنا خائفة.

قالتها "فريال" وقد ارتجفت فرائصها لتتلهف "أمينة" الحديث في صياح:

- إن بقينا سنستعبد مرة أخرى. لن نقدر على إعطاء كل منهم حقهم وقد كثر ما سلبه منهم حتى إرثنا لن يكفيهم. اترك كل شيء هنا ولا تنسى ميراثنا وأموالنا بالبريد والبنوك فلنحيا بها ونسأل الله تعويضهم وتعويضنا.

أرهف السمع لها وبين الفينة والأخرى يطالع الباب الضخم. اقتنع بحديثها فأومأ مؤيدا. تذكرت "أمينة" ما غفلا عنه:

- "بلقيس"؟

زمجر "مهران" اهتياجا وكل شيء ضده. هتف أن تخرج والدته وشقيقته من باب خلفي متوارى عن الأعين يقود لطريق مهجور لا يعلمه أحد. كان مهربا أنشأه "فرعون" بنفسه مستعدا لأي خطر كمثل ما هم به الآن.

اندفعتا للخارج ودبيب الخوف معهما على وعد منه أن يتبعهما بعد دقائق قليلة يدبر فيها أمر المسكينة. ارتجف قلبه والجلبة تزداد قربا وعلوا. أزف في طريقه نحو الهاتف والخادمات تركضن مولولين يلطمن وجوههن يجمعن حاجياتهن هاربات قبل أن يصل الغاضبون إليهن فيفتكن بهن رغم قلة حيلتهن.

أسرع للهاتف القديم يدير عجلته متصلا بالمحامي وحدقتاه لا تفارق الباب. الارتياب يسري داخله بدلا من دمه الجاف هلعا وأطرافه ترتعش. سارع الحديث مرتعش اللسان وقرع الأقدام بات أوضح:

- أنا "مهران فارس العاصي" من وكلك لقضية القاصر "بلقيس عبد القادر الشامي" لقد تقاضيت أموالك وأنت مسئول عنها بشكل كلي الآن. لن أستطع التواصل معك مرة أخرى أستحلفك بالله ألا تتركها إلا وهي خارج القضبان سالمة.

أنهى حديثه فدبّ الخوف أوصاله يسمع صوتا حادا كصاعقة تزلزل الأرض. أدرك تحطيمهم البوابة الرئيسية فهوت كما سيهوى جسده جثة إن بقي ثانية أخرى.

عجّل متتبعا طريق أسرته تاركا سماعة الهاتف معلقة يعلو منها صوت المحامي الغاضب الغير راض. خطا للخارج ثم تيبس ببداية الطريق المهجور ولمح والدته وشقيقته بعيدا ينظرون بلهفة وسط الظلمة والضباب يرفعون كفوفهن المرتعشة ليراهما. التفت ناحية القصر يبتلع غصته والصخب يصله. أطبق جفنيه بطيئا ويده تغلق الباب الخلفي الذى شُكِّل على هيئة قطعة من الحائط. من ينظر إليها من داخل القصر لا يرى سوى حائط كامل لا يشوبه أبوابا.

سقطت عبرة لا يعلم سببها. هل لخسارته الكثير من الأموال والحاجيات أم فقدانه الذكريات مع والده بالقصر الشاهد طفولته أم تخليه عمن لن يستطع يوما رؤيتها. إن عاد أو ظهر قد يعلمون مكانهم فينالوا منهم تلك المرة بعدما رحمه الله ليكون مع عائلته الصغيرة أثناء الاقتحام وإلا لتمكّثتا محلهما ووقع ما لا يحمد عقباه.

انتفض جراء صرخة شقيقته وأنفاسها ثائرة يستشعرها بقلبه لا أذنيه تحثه منتحبة أن يسرع إليهما خشية كشف أمرهما. التقط نفسا عميقا يرمق القصر لآخر مرة يودعه ويودع كل جميل قليل داخله. أشاح وجهه يوليه ظهره يستعد لحياة جديدة بمكان مجهول يبتهل الله أن يكون أفضل خال من البشاعة والعذاب والفاقة والحرمان.

منحنية الرأس وقد فرغت من الروح والوجدان. باتت شتات طفلة جعلها الزمن أنثى رغما عنها. رفعت رأسها تناجي ربها يغمرها الشجن والوجس من القادم. فزعت عندما فتحت زنزانتها ودلف رجلان متجهما الوجه فتركها أحدهم والذي يبدو الغفير مع الآخر ذو البطن المنتفخة أمامه إنشات ليست بالقليل يرتدى نظارة كبيرة وبذلة منمقة.

نهضت من مكانها المبلل فلفرط رعبها لم تتمالك حالها وتبولت لا إراديا. تطلعت للرجل في فزع زال عندما عرّف عن حاله أنه المحامي. انفرجت أساريرها تبتسم كقطة وجدت بيتا يحويها ومشردة وجدت عائلة تأويها فتعود بعض براءتها المسلوبة متوسلة:

- سأخرج قريبا أليس كذلك؟

زاد تجهم العجوز بشواربه العريضة البيضاء تغطي فمه المتحرك متلفظا بقسوة:

- كيف تخرجين وقد تخلى عنك من وكلني؟!

ازدردت ريقها وسكنت. أنفاسها تصنمت مثلها واضطربت مستفهمة:

- كيف؟!

زفر عنيفا مكفهرا يشير إليها بإصبعه في حدة ونقمة:

- هاتفني منذ قليل يخبرني بلا مسئولية أنه ترك قضيتك ظنا أن ما تقاضيته يكفي. فليكن بعلمك لم أحصل سوى أجري لمرافعة واحدة أي لو أُجلت القضية سأتنازل عنها وإن حكم وأردتِ نقض فابحثي عن غيري وإلا جدي من يكفلك غيره.

- ليس لي سواه.

- تحملي العواقب إذا.

انصرف مبرطما بينما هي تهدل كتفاها وتسمرت محلها. اهتز ذراعاها جوارها وشفتاها انفرجتا. سارت بآلية تجاه عمدان الحديدية تستر النور خلفها.

خطوة.. اثنتان.. ثلاث.

ضربتها أشعة الشمس الفارة عبر حفرة صغيرة بالحائط مستقرة على جانب وجهها. عين لامعة مضرمة والأخرى باهتة مظلمة. قبضت على حديدتين من قفصها وأسندت جبينها عليهما. لم ترمش وكأن الطعنة أودت بها واستنزفت دماءها. لا جدوى من البكاء وإحساسها مفقود. انفرجت شفتاها بابتسامة مريبة. تباشيرها تنم على تعابير مخيفة. أجّت قسماتها ولسانها يهمس في حسيس أفعى تبخ سما متأهبة للمعركة الكبرى التي لن تقبل أقل من النصر بها:

- "مهران".

انقبض قلبه وتوقف عن المسير. تلفت بجسده رافعا حدقتيه في تعجب وغرابة مزامنة مع رفعها حدقتيها هي الأخرى. كلٌ يتطلع للفراغ بمشاعر متباينة. المُشاع بينهما توهُّم كل منهما الآخر أمامه. انفرج ثغرها فانكمش خاصته وقد أشرف القدر بلعبته.

الحياة قنينة تُفعم بالمياه والأسى؛
فتُسلب الهواء والهوى.

إسراء عبد المنعم

عينان ثاقبتان تخترق زجاج حل محل الحائط يطل على طريق صاخب لأزيز السيارات والبعض نشب خلاف بينهم. مضى حارسان ضخما الهيئة صوبهم يفضون الخلاف بينهم طاردين إياهم من أمام المبنى الضخم دقيق البناء باهظ التكلفة كثير الأدوار لامع الزجاج.

يطوّقه مقعده الضخم في دفء وحَدَب ليغوص بأعماقه مسترخيا مرتاح البال رأسه تستند لظهره. تلاقا جفناه وتداخلت رموشه بينما سكنت شفتاه والتزم حاجباه وضعهما الطبيعي. كفاه ممتدان للمكتب أمامه كمسمار يدق الخشب بهدوء وكل الوقت معه فلم العجلة؟!

تهجره أنفاس فتسكنه أخرى في انصباب. ران الصمت لا يبارزه سوى طرقات إصبعه وازدراده ريقه لتضطرب تفاحة آدم ويده الأخرى تزحزح رابطة عنقه في ضيق. أزالها لمّا اختنق خاصة بعد يوم طويل بالإشراف على الأحوال داخل شركته كعادته يتفحص كل عامل بدقة ليعلم مكنونه ونِتاج عمله دون طلب تقديمها.

حرّر زفرة حارة وأعاد رأسه للأمام يئن أرقا من وضعيته التي ظنها مريحة ثم دلّك رقبته عل الألم يزول.

تنبهت حواسه لصوت طرقات الباب فعاد نشاطه لعقله الثلاثيني آذنا للطارق بالدخول فدلفت فتاة متأنقة الملابس.

استمع إليها في صَحْو تعلمه عدم تبق أحد من المتقدمات للعمل. مَذَل فلم يستطب أي منهن. شهادتهن إما مشكوك بها أو غير مرضية أو المعضلة بالفتاة عينها فيبدو عليها الدلال وعدم تحمل وظيفة متعبة كمساعدة شخصية تكاد تنام سويعات قليلة تفطن أقل كلمة يتفوه بها.

أشاح للمترقبة حديثه أن تنصرف فلبّت الأمر. أسند ذقنه على كفه متنهدا ثم نوى نشر إعلان جديد بعد مدة بسيطة عل تحضر من تستحق.

قصد الممر بخيلاء وهالة تحاوطه. كل موظف يراه ينهض أدبا مبتسما فيبادله إياها. خطا صوب سيارته السوداء وقبل دلوفه التفت للشركة. جال بصره ناحية كل جزء بها. عنت لينشئها بذلك الشكل المبهر. استقرت عيناه على لافتة ضخمة مضيئة يتوسطها كلمة كَل لتعظيمها فتصبح اسما يهابه الجميع.. (الفارس).

بشّ وجه "مهران" والدعة نادمته بعدما حقق حلمه بإحياء اسم والده. ذيع صيته بين رجال الأعمال لا يحضر ندوة أو يطل على مكان إلا ويشار إليه بالبنان صائحين "مهران فارس".

انكتلت في لهاث وطرف حجابها يتطاير خلفها ترفع ثوبها الطويل بضعة إنشات كي لا تسقط أثناء هرولتها. تشبث كفها الصغير بأوراق في حرص تدعو ألا تتأخر فتضيّع غنيمة العمل لدى أكبر شركة يتمنى الإنس ولو دلوفها والتمتع برؤيتها.

مالت للأمام تستدعي انتظام تنفسها. انتبهت حواسها لمراقبة البعض لها تعجبا فحمحت حرجا ثم رزنت خطواتها في تناف مع طفولتها التي لا تطّرد عمرها المتجاوز منتصف العشرين. رنت من ممر الشركة وتركها الحارس بعدما علم غرضها.

صعدت الدرج حيطة من المصعد الكهربائي وتخيلات أنه قد يسقط أو يتوقف فتغدو جثة هامدة. ارتعدت فرائصها وتغضن جبينها مشمئزة. اعتدلت مشيتها وتباشيرها لما حانت من مكتب مساعدة المالك بعدما دلها أحد الموظفين عليه.

ابتسمت للمساعدة فبادلتها إياها في عمليه متسائلة عن طلبها لتتحدث متوترة:

- أنا "زهرة عزام" من هاتفتكم بالأمس للتقدم للوظيفة. آسفة لتأخري عن الموعد.

تناهت إليها همهمة انتهت باعتذار:

- لقد رحل المدير منذ قليل وانتهت المقابلات.

- لكني في حاجة ماسة للوظيفة.

ابتسمت آسفة فأومأت "زهرة" وترقرقت عيناها فسالت دمعة على وجنتها الوردية الناعمة. حال حديث المساعدة المرتبك دون انصرافها. غمة الفتاة جعلتها تخالف مهنيتها:

- يمكنني مساعدتك لكن اسمى لن يذكر اتفقنا؟

وافقت بلهفة حميّة تحفظ عنوان منزله الذي أملته عليها بعدما أخبرتها أن تذهب لبيته فأحيانا يعقد بعض المقابلات هناك حيث يحيا مع عائلته.

شكرتها مغتبطة تكاد تعاود الهرولة كالبهاء مرددة العنوان تتبعه بابتهال ودعاء أن تحصل على الوظيفة التي لطالما حلمت بها.

توقف برهة بسيارته وأمامه طريقان يسلكهما أحدهما يزينه أشجار منمقة وزهور على جانبيه بينما الآخر المجاور طريق مهجور فقدت الأشجار أوراقها لتبقى عارية الغصون الجافة تراها سوداء لشدة الظلام والضباب المحيط بها.

تخامر ذهنه متذكرا ذلك الذي سلكوه منذ سنوات طويلة بشق الأنفس والتعب يتملكهم لكنه المفر الأوحد. جازاهم الله بنهاية الطريق عقب يومين دون راحة فبلغوا المجاور بأشجاره وأزهاره ورائحته العطرة وقد شرعوا رحلتهم الجديدة الأقل إعياءا. فتّشوا عن مكان يستأجرونه حتى ينهي بعض الأوراق ويستلم ميراثه ثم ينشئ إمبراطورية جديدة لا تحمل سوى اسمين - "مهران فارس" – معرضا عن "العاصي" وكل ما يذكرهم بالماضي.

أتلفه الكلل حتى وصل لمبتغاه وجمع الأموال. شقّ طريقه بتشييد شركة يديرها تحقيقا لحلم والده قبل حلمه هو. إبان بنائها استكمل تعليمه بل زاده معلومات من كتب جمة تكاد تملأ غرفة بأكملها. نهل العلم دون عقاب وتلقن المعلومة دون خور. مرت السنون ومر معها العمر التهى بشركته حتى كبرت وعظم اسمها تبارز البقية فيريح جسده جوار أسرته يرهف السمع لهما ويملي عينيه برؤياهما مسرورتين بلا شحوب أو انذعار وذلك هو المبتغى الأعظم منذ صغره. اتخذ قرارا قاسيا بعض الشيء لكن يأمنون به ألا وهو ترك الماضي بما فيهم "بلقيس". أدى واجبه وأغلق كتاب يتوسطه الدنف حيطة ألا تتفاقم صفحاته ويتضاعف الوصب.

أوقف سيارته بعدما بلغ مسكنه. قطع الطريق للداخل ونادى في مرح شقيقته التي خرجت من غرفتها ركضا لأسفل ترتمي بأحضانه كطفلة صغيرة لا امرأة ناضجة تخطت الثلاثين بقليل.

ربت على شعرها وقبل وجنتها مبتسما ثم قصدا غرفة الجلوس حيث والدته المنكبة على كتاب الله تتلوه في خشوع. ترقبا انتهائها فطالعتهم ويدها امتدت صوبه. اندفع ناحيتها يطوقها كعادته عند عودته من يوم شاق بعمله.

لثمت "أمينة" جبينه وهو يلتف حولها يقود مقعدها المتحرك خارجا تتبعه شقيقته ليتناولوا طعامهم. دوما ما ينتظرونه لكن بحب وحنان لوجوده بينهم لا خوف وجزع من تعذيب أحدهم.

توسط الطاولة يجلسان على طرفيه يستسيغون الطعام. ثوان واحتجت والدته قائلة:

- كيف توافق على قرارها الغبي؟

عاتبته بنظراتها فتنهد مربتا على كتف "فريال" التي أحنت رأسها مغتمة من إلحاح والدتها. أحبرها شقيقها بكلماته الرقيقة:

- لن أجبرها على الزواج أمي.. ومعها الحق تلك المرة فالرجل بعينيه جشع لمالها.

كزت "أمينة" على أسنانها مغتاظة:

- لقد تخطت الثلاثين. سنوات قليلة ويتوقف سوقها إن لم يكن قد حدث من الأساس.

- أمي! لست سلعة تباع وتشترى، تعلمين جيدا من تقدم كان طامعا بي والبقية ما إن يعلمون الماضي حتى يفرون خشية أن نكون مثله.

أنهت عبارتها مبتلعة غصتها. عاتبتها والدتها وأشاحت وجهها برهة حتى التفتت إلي ابنتها متلمسة يدها وقالت في سلوة:

- إصراري نابع عن خوفي.

- لا تقلقي أمي نحن معها. الزواج نصيب والله سينتقي نصيبها.

قالها "مهران" يضم أخته فبادلته في عرفان لمناصرته إياها. تنهدت "أمينة" وكما ألفت تمت هزيمتها في وغى إقناع ابنتها أنها كبرت وحان زواجها.

- هل أنتِ متيقنة أنه إنسان جيد؟ لا أطمئن لذهابك لمنزله.

عبارة ملؤها الهيبة من لسان مرتعش كأطراف صاحبته العجوز شديدة تجعد الوجه وضيق العينين وقد فقدت أسنانها ليتبقى اثنين فقط بفكها السفلي. غرِمت الجمال فنالت الحنان. نظرتها ناعمة جميلة ترغمك لثم جبينها وكفها كما فعلت "زهرة" المبتسمة يائسة من اجترار العجوز لكلماتها كي تأمنها. كانت توافيها كي تطمئن عليها بعد وفاة والديها فبقت وحيدة. اعتادت زياراتها وأصبحتا صديقتين مقربتين بفارق عمري متباعد.

- لا داع للقلق فهو يسكن مع والدته وشقيقته أي لن أكون وحدي.

أومأت العجوز على مضض ترثي قسماتها فراق من اعتبرتها حفيدتها. تمتّهت أتدعو لها القبول فتترك بيتها المجاور لها وتسكن بمنزل مديرها - كشرط وضعه بإعلان وظيفته ظنا منه أن بقاء المساعدة معه بنفس المنزل يسهل عملهما ويجعلها تحت عينيه وقتما شاء العمل - أم تدعو الرفض فتعود مكسورة الخاطر باكية لضياع حلمها.

تنهدت محتضنة "زهرة" المبتسمة في حالمية داعية بالصلاح أينما كان.

أطبقت جفنيها في لحظة صفو اضطجعت أعلى فراشها الوثير ذراعاها متباعدان كساقيها كطائر وجد حريته بعد حبس مديد. فرغ بالها إلا مما تذّكره دوما كلما انفردت مع ذاتها.

اعتصرت عينيها ألما لمّا أدركت محيصهم والجوع والمرض اعتراهم. اشتد الوصب فكلّف الله أن يظللهم العوض.

طوّدت في مخيلتها حينما أرشدت أخاها لمدرستها. تسلّم أوراقها وقدّم لها بأخرى داخل المدينة حيث القرب والرقي. خاطر ذهنها نظرات أستاذها السحيقة حد الهول. خالت عبرة بعينيه سرعان ما نفت معرضة عن حمقها. لِم الاستعبار لمجرد تركها المدرسة؟!

أم أنه يحبها؟ غصة مريرة لكمتها باعتدالها متكومة حول نفسها. اهتاجت أوصالها لفكرة لا تعلم صحتها بل تستشهد بكلمات "بلقيس" المسكينة التي لا يعلمون شيئا عنها. انقطع أي تواصل مع كل من كان بالماضي منذ وصولهم متعهدين عدم مضايقة أي منهم للآخر بتذكيره بما مضي.

كادت تقطم شفتها متبسمة في خفوت متسائلة عما حققه أستاذها "عصام" وإن كان مداوم التدريس بمدرستها القديمة أم نُقل لغيرها.

جفلت إزاء نداء أخيها فتقصّت غرفتها ماثلة بالممر قرب سور السلم الحديدي القصير. تغضن جبينها لمّا لمحت فتاة حسناء تجاور شقيقها ووالدتها يتحدثون بتودد فهبطت الدرج في فضول متسائلة عن هويتها.

جسدان متضادان بكل شيء قبعا أمام بعضهما والفاصل بينهما مكتب أسود ضخم. يخترق الورق بين كفيه في تركيز استحضره بصعوبة إثر شروده بها وضيقه من إلحاحها عقد المقابلة هنا غير مصرحة عمن أعطاها عنوان منزله وسمح لها المجيء.

تزحزح جانب فمه فأغار على خده مبتسما. ادّكر صخب صوتها عند البوابة ترمق الحارس في غلظة تارة وبراءة تتضرع الدخول تارة أخرى. كادت تدمع وهي ترفع الأوراق باستقامة بصره تلقنه ما نالته من شهادات وكأن الحارس متعلم يقدّر ما تملكه من مؤهلات عالية. خرج بسبب الضجيج فقابله احتداد الحارس يكاد يدفعها. صاح به آكلا الخطوات صوبهما مستفسرا عن ماهيتها.

افترّ لمّا جحظت عيناها وعجّت مشدوهة لرؤياه باسمه تدبدب الأرض كمن أبصرت فنانا مشهورا. انتفخ صدره زهوا لإنجازاته التي تجعل تلك ردة فعلها عند رؤيته.

أعلمته تأخرها عن المقابلة لإعياء جارتها فمكثت معها حتى تشفى ثم وفدت منزله. كاد يرفض لكن مقلتيها الراجية والتي تفاقم لمعانها بعدما تضافرت دموعها حالت دون ذلك. لم يجد بدا من الموافقة. زال العبس عنها واحتلها البشر فحمحم مشيرا لها الدخول.

ترك الأوراق الحاملة كم من المعلومات تبهر الناظرين فحاول ضبط انفعالاته وحماسه لتوظيفها كي لا تغتر. اندفعت كلماته المادحة ببعض الفتور:

- أحسنتِ. تملكين مؤهلات عالية تجبر أكبر الشركات توظيفك.

- شركتك مختلفة سيدي لا يجرؤ من يجبرها على شيء.

مال رأسه للجانب يهزها معجبا بكلماتها التي شنفت أذنيه ثم تحدث بعد زفرة طويلة:

- "زهرة ثائر عزام" شرفتي شركة "الفارس".

- أتمزح يا رجل؟!

قالتها منبهرة من سرعة توظيفها لا لقبولها فهي ليست بالضعيفة المترددة بل واثقة بقدراتها وتحقيقها لرغباتها بما تحمله من شهادات ولغات أجادتها.

رفع حاجبه لجملتها الغير مهذبة فجفلت مدركة خطؤها:

- أعتذر قصدت شكرا سيدي.

همهم وعيناه مستقرة عليها يتلاعب بقلمه بين كفيه متمتما بنبرة يشوبها الحدة:

- يعجبني عقلك النبيه لكن لسانك يحتاج بعض التأديب.

كزت على أسنانها لوقاحته وكادت تثأر لكرامتها فقاطعها محتدا بعدما لاحظ رغبتها بالانتقام ليقرر التدخل كي لا تخفق الحديث ويضطر طردها. حينها سيجبر على إعلان جديد بأموال طائلة وتعب أعصاب آخر:

- تعلمين أن عملك يتضمن البقاء جواري بكل مكان الشركة، المقابلات، السيارة حتى المنزل.

- المرحاض ليس ضمن القائمة أليس كذلك؟!

- عذرا!

صاح في برح إبان التصاقها بظهر المقعد مقلتاها تهتز بالأرجاء. زفر ماسحا وجهه بكفه ولا شيء يكتمل لآخره. يستحوذ على عقل نابغ فيلتصق بمصيبة لسانها الأرعن.

- أسمعتي يوما عما يُدعى بالتفكير؟

أومأت له مفتخرة فاقترب بجسده من المكتب متلفظا بقسوة:

- إذن الزميه قبل الحديث.

حركت مقلتيها يمينا ويسارا في حرج تهز رأسها مرة أخرى بخضوع ليضرب المكتب عنيفا صارخا:

- تحدثي!

- حسنا حسنا.

برطمت خشية ونهيجها يعلو. أضمر ابتسامة كادت تبدو على وجهه المصطنع القسوة ثم وثب مغلقا زر بذلته يشير لها النهوض. اقتفته للخارج تهدئ فرائصها المرتجفة لصراخه فأصبح وحشا مروعا.

غدت قبالة عجوز على مقعد متحرك بعدما تحدث سيدها معها لدقائق.

- أهلا ابنتي تصرفي وكأنك بالمنزل.

أومأت للسيدة الودودة بابتسامة لطيفة. التقطت ضيق عينيه فاستدركت خطأها:

- شكرا سيدتي.

هزّ رأسه في رضى ثم استدعى فتاة تحمل اسما جميلا بصوته الغليظ:

- "فريال"!

اجتر النداء مرات ليست بالقليلة حتى تراءى إليه هرولة أرجل تبعها هبوط فتاة جميلة عاقدة حاجبيها متعجبة ثم انفكا عندما عرّفها عليها. طوّقتها "فريال" في إخاء وابتسامة مرحبة فبادلتها الاحتضان والترحيب.

ابتعدا عن بعضهما جراء صوته الحازم:

- سيبدأ عملك منذ الغد. في السادسة صباحا تكونين هنا بيدك حاجياتك ترتاحين ساعة خلالها تتعرفين على القصر ثم يحين العمل.

- حسنا سيدي.

- تتعلمين بسرعة.

انتاغ متشفيا وأولاها ظهره متجها لغرفة مكتبه. تقلصت قسماتها في هزل تقلده محتجة لطريقته الغير مهذبة. رصدتها المرأة وابنتها فقهقها بصخب على مرحها. رَحَبَت "زهرة" حتى تخلصت من وطئ الخجل لسماحتهما. بات حرجها مسرة فقد خالفتا ظنها أنهما متعجرفتان لثرائهما.

ودعتهما ثم شطَنت عنهما تتراقص فرحا وأسنانها تلمع تحت الشمس الناعسة فتثاءبت رغبة بالنوم عقب أمس المقضيّ في سهر لتعد أوراقها وقد لقي تعبها الجائزة فحققت حلمها.

- قررتي تركي إذن؟

أطرقت العجوز رأسها في شجو فزلفت "زهرة" قائلة:

- سأزورك قدر استطاعتي حبيبتي.

- وكأنني سأسمح بغير ذلك؟!

برطمت حانقة وعقدت يديها المرتعشة أمام صدرها مكفهرة الوجه معكرة المزاج. قهقهت "زهرة" وانقضت عليها تدغدغها في رفق فعلت صرخاتها الضاحكة ترجوها التوقف. رحمتها مشاركة إياها المرح ثم تنهدت وأردفت ببعض القلق:

- لا تنسني بدعواتك حبيبتي.

- بالطبع عزيزتي ستظلين دعائي الدائم بكل ركعة وسجود.

اندس رأسها الصغير برقبتها المجعدة تستشعر دفئها المطمئن للبها فيعم الأمان جوفها.

مستلقٍ أعلى فراشه الوثير يده افترشت مؤخرة رأسه والأخرى ممسكة ملفها يدقق النظر به وبصورتها. ابتسامة لطيفة تداعب شفتيه متذكرا طاقتها وحيوتها بالحديث وبالطبع تسرعها الذي سيودي بها يوما مخلفا المتاعب يوقعها بمشكلات لغبائها وزهدها في التفكير.

قهقه على لقائها المرح تعتصر يده الملف وعيناه على السقف شارد. تخامر ذهنه والأفكار تطوف به داخل خيالاته الواسعة فأوصلته إلى سبات عميق براحة تامة وبسمة جميلة لم تهجره.

صوت رخيم إثر إلقاء هاتف على الفراش ليغوص داخله تبعه زفرة غاضبة صدرت من شفتين ورديتين لصاحبة العينين الهائجتين الضائقتين.

تبعت "فريال" هاتفها تجلس جواره وارتكست تباشيرها بالوبال. منذ انهائها كليتها - كلية تربية - ولم تتزحزح من المنزل فالانزعاق ما ترك أعماقها حتى بأيام الجامعة. ناهضت فكرة تلقي تدريبات لإتقان اللغة الإنجليزية حيطة ألا تختلط بالكثير. ها هي الآن دَحَرت الجبانة لكن الجهل تيبس فلم تتقدم إنشا.

ليتها استمعت لأخيها أن تكترث بتدريبات مكثفة فإتقان لغة جديدة لا يأتي سهلا لكنها تهاونت والآن زادت شعلة فضولها وإصرارها بتحقيق حلمها بعد كلمات شقيقها المعجبة لأول مرة بالفتاة اللطيفة لإتقانها ما يقارب ثلاث لغات غير العربية وهي لغة واحدة بكئت بها!

لا تنكر غيرتها بعدما رأت صفحة زميلة لها بالكلية سابقا بإحدى مواقع التواصل فدُهشت لقراءة المناصب التي حازت عليها رغم زواجها وإنجابها.

وهي العانس الوحيدة بلا مسئوليات لا تستطيع الاعتلاء فيما تخصصت به.

لم تشعر سوى ويدها تمسك هاتفها تتنقل بين صفحات عديدة بآلاف المتابعين فأحرزت هدفها. أعجبت بإحدى الصفحات ثم قصُدت قسم الرسائل ويدها تخط حروفا تشكّلت في طلب للانضمام إليهم كي تثقل لغتها وكأنها نشأت بدولة أجنبية.

أتتها رسالة مثبتة بها العنوان وبعض المعلومات. تبسمت وطاقة من الأمل تبث بأعماقها لتخيلها المستقبل بتحقيق أول نجاح لها واسمها غير مغمور تحت اسم أبيها وشقيقها فلتكوّن نفسها بنفسها. الزواج ليس كل شيء لتوقف حياتها لأجله. بالنهاية ما هو إلا نصيب مكتوب حتمي على الجميع مهما بلغت ومهما مرت بها السنون.

فلتنتظره دون تعجل أو ثبات بموضعها. قد يكون خروجها وتعلمها والتعمق مع البشر يأتيها خيرا من كل النواحي ويزيل الغمة عنها.

أمشحت السماء وتشعشع الذهب بالأجواء فأجت الأسطح وتنحى الفحم جانبا أمام هيبة أجبرت الدهماء مطالعتها حامدين الله عليها.

ساق طويلة تطرق الأرض كأن صاحبها يعنفها لتأخر مصدر إزعاجه مؤخرا. صك أسنانه وتعثرت أنفاسه فحالت التوالي دون الانطلاق كل يهرع فزعا في لهفة تجنبا ثوران غضبه أكثر وأكثر.

طالع ساعته الفضية فزرد عينه يكاد ينطبق جفناه متوعدا وقد بسّقت عليه نصف ساعة بموعدها الأول. وهو الذي استفاق لأجلها دونا عن سابقاتها من الموظفات ليستقبلها فتقابله بإهانة تأخرها. سيريها وجهه الآخر ويعود حزمه ونبرته الحادة ترتعب لها الآذان.

كبا وجهه لاغتياظه فقطع طريقه للخارج ثم فتح الباب الرئيسي وقبل خطوة أخرى علقت قدمه في الهواء وأذناه تلتقط شهقات خافتة. تلفت للجانب حيث مصدرها فهاله ما أبصره.

رمشت كأميرة نائمة تتثاءب في خمول تعدل وضعية نومها بجعلها للجانب ويدها تحتل جانب وجهها ساقاها تتقلص ناحيتها كرضيع ضاق عليه المكان مهمهمة في نعاس.

مرت ثوان وهي على حالها حتى جحظت عيانها دون سابق إنذار. هبّت في فزع ورنين ريقها المبتَلع يشق الهدوء. تطلعت للجانب في توجس من القادم وقد كان.

صاحت مرتعبة والساعة أصبحت الخامسة والنصف صباحا بعدما كانت مقررة الاستيقاظ بالثالثة لتوضب حاجياتها.

هوت بجُبّ الحيرة لا تعلم ما تفعل والمسافة لبيته وحدها تحتاج نصف ساعة. عزمت النهوض مرتدية ملابسها وترك كل شيء لوقت آخر. تدعو ألا تقدم النهاية قبل البداية حتى.

تجهزت لتلتقط حقيبة كتف صغيرة. زحَلت عن غرفتها إبان ضبط حجابها واليد الأخرى تجهز أموال سيارة أجرة تقلها لمنزله. استعوضت ربها فيما ستدفعه للسائق فالحافلة لن تفيدها إن انتظرتها وأخرتها عن عملها.

تعض أناملها ندما لسهادها البارحة. جفلت بتوقف السيارة أمام منزله الضخم فأعطت السائق أجره منصرفة تجاه مقصدها والخوف دبّ أوصالها.

رغم إصرارها ألا تنظر لساعتها كي لا يتفاقم وجلها إلا أن عقلها شق العصا. ارتجفت جزعا والساعة تخطت السادسة والنصف.

وقفت أمام الباب الرئيسي بعدما تخطت الحارس الذي تبسم فلم تبادله سهوة ليرمقها بتأزف. رفعت يدها لتطرق الباب لكن انذعارها تمكن منها فاستدمعت. لزمت الحائط وتنحت بضعة إنشات عن الباب مغتمة تحاول تكديس قوتها التي ترنو عنها عند توترها لتنهار كطفلة توشك على فقد أمنيتها.

انقلب ثغرها تستمع لصوت الباب يفتح وهو يطل عليها بجسده الضخم ينظر لها متعجبا. نهضت مرتبكة تعدل حجابها بيد والأخرى محت دموعها التي زادته عجبا. تساءل سبب بكائها بقلق ساوره فانتحبت بإجابتها:

- أعتذر لم أقصد التأخر جهزت كل شيء أمس لكن .. لكن.

عادت لشهقاتها فطمأنها لتكف والتوتر يعتمل أوصاله غير مصدق أنها تبكي لتأخرها وقد أفَلت ثورته بلحظة:

- أهدأي حسن لا عليك.

- لن أطرد أليس كذلك؟

تلهفت السؤال فطمأنها ومقلتاه تحوم بالأرجاء. رمقته بعيونها الجميلة المشدودة فرحة تعدل ثوبها الفضفاض الطويل وتخطته مستقيمة الظهر وكأنها لم تبك للتو. تعقبها رافعا جانب شفته العليا مع حاجبه في ذهول من انقلابها السريع وكيف تقلص أمام بكائها. يلزمه تشمُّر لتلك المصيبة القزمة التي حلت عليه!

جالستان كل منهما تضع يدها أسفل ذقنها وستار التوتر يظللهم خشية على "زهرة" من ردة فعله. كان أمامهم والشياطين تتراقص حوله يجزمون نهاية المسكينة على يده اليوم. يعلمون عشق "مهران" للوقت والالتزام بمواعيده.

رفعت "أمينة" رأسها تجاه ابنتها متمتمة في قلق:

- أخاف أن يجرح أخاكِ الثور الفتاة!

أومأت "فريال" وكادت تتحدث حتى قاطعها خطوات فوضوية وأخرى منتظمة. التفتا للقادمين وإمّحى القلق وطل العجب من الهدوء الذي يعم عليهما وكأن التي تسير في رصانة لم تثر حفيظة من خلفها.

أفَف من تهاديها فتقدّمها لطاولة الطعام وكالعادة على طرفيه شقيقته ووالدته المبتسمتين بلاهة. مالت "فريال" صوب شقيقها وتفرقت شفتاها متهيئة للحديث ليلتفت لها في حدة هامسا:

- ولا كلمة.

حمحمت مستندة لظهر مقعدها ومطت ثغرها لوالدتها جاهلة التغير المفاجئ هنا.

توقفت "زهرة" أمام الطاولة تطالع للطعام الشهي بخمص. استقرت عيناها أرضا بعدما التقطت نظراتهم إليها.

شرع في الأكل بوقاحة غير آذن الجلوس. يئست "أمينة" من همجيته فطالبت الفتاة الانضمام إليهم. تمنعت قليلا وداخلها تدعو إصرارها. حقق الله مرادها فشاركتهم في استحياء تحت عيون السيدة الحانية وابنتها التي ربتت على يدها في لطف لكنها تعلم علم اليقين اختراق نظراته الحارقة لها إثر اشتعال جسدها.

- تناولي فطورك ولا تقلقي لن نحاسبك عليه.

قالها مبتسما يثير استفزازها فانفجرت الدماء بوجهها سرعان ما انتاغت منتصرة عندما لمحت لكز والدته له تعاتبه فتذمر حانقا.

مرت ثوان ولا زالت مرتبكة قبل أن تشرع الأكل ببطيء في البداية ثم اندمجت مع الطعام بتلقائية كأنها وحيدة بمنزلها متلذذة بأصوات لطيفة. كفّت عن التناول لضحكة "فريال" الخافتة فنفضت كفيها تاركة البقية القليلة من الطعام تحمد الله والحرج اعتملها.

نظر لها في استهجان كمن يجلدها على راحتها الزائدة. تجاهلته كي لا تعاني ولم يمر على عملها سوى ساعة واحدة تأخرت عنها نصفها.

أنهى الجميع طعامه يحمدون ربهم. كاد ينهض فتمكّث لكلمات شقيقته المتلهفة:

- أخي انتظر!

همهم لها لتفرك يديها مكملة في توتر:

- بالأمس وجدت مركز تدريب للغات ذائع الصيت وأردت تلقن الإنجليزية به فلا يضيع مجهودي بالجامعة هباءا. هل يمكنني التسجيل به اليوم كي لا تفوتني الحصص؟

بدت عليه إمارات الإعجاب فأخيرا قررت صرف الخمول عنها وفكرة أن المرأة موئلها بيت زوجها مهملة شئون حياتها وقدراتها. ترجم نظراته المغتبطة لكلمات محفزة موافقا رغم شَجْب والدته التي فضلت الصمت فبالكاد يحتل البريق عيني ابنتها ليصدح صوت حماسي متلهف:

- ولِم المركز وأنا هنا. ما رأيك أن أعلمك فأنا أتقن الإنجليزية وأتحدث بها أيضا؟

- مجانا.

التفتت "زهرة" له وتغضن جبينها لكلمته فأزال إبهامها بقوله:

- تعلّمينها مجانا.

احتلتها البلاهة هنيهة فلم يسأل بل يقر مجانية تعليمها. تقهقرت مجيبة:

- أوه لقد تذكرت انشغالي لن أستطع أعتذر.

كتمت "فريال" و "أمينة" ضحكتيهما بينما تنهد هو يائسا يحرك إصبعه في حركة دائرية جانب رأسه إشارة للتفكير قبل الحديث. أطرقت رأسها في صمت وحرج .

نهض عن مجلسه واضعا يده بجيبه يخرج رزمة من الأموال لشقيقته تدفع للمركز والباقي وقت الحاجة. لثمت خده وصعدت لأعلى تجهز حالها لأول يوم خروج لها منذ مدة مديدة.

اقتفت أثره للخارج حتى التفت لها متحدثا بآلية:

- سوف نذهب للشركة أولا تتسلمين عملك ثم أوصلك لمنزلك توضبين حاجياتك سريعا لنعود.. مفهوم؟

أومأت مبتسمة كالبهاء برهة ثم تفوهت عند رؤية نظرته المظلمة:

- مفهوم سيدي.

أولاها ظهره مستكملا طريقه وهي خلفه. جلست جواره بالسيارة بأمر منه ثم شرع الحديث عن طبيعة عملها وهي منصتة في اهتمام تلصق كل كلمة بذهنها.

ابتسمت لانعكاسها بالمرآة ترتدي ملابس جميلة محتشمة أنهتها بحقيبتها متنهدة ليوم جديد مختلف. قبّلت جبين والدتها المترصدة في سخط لم يمنعها من الدعاء لها. حتى لو هجرها الرضا فدعواتها لا تنقطع عن أبنائها شاملة البعيد المنتظر لقاؤه يوما يقينا أن الله لن يميتها قبل أن تناظره مجددا.

تبلل شفتيها كل حين لدفع التوتر عنها وتعزيز ثقتها بنفسها تطرق بحذائها الأرضي الممر للمركز تزدرد ريقها مرتبكة حتى مثلت أمام مكتب الاستقبال. استجمعت كلماتها متمتمة برغبتها في الانضمام لتدريب تعلم اللغة الإنجليزية.

أومأت الموظفة في لطف تشرح القواعد والتكلفة وهي منصتة. أدركت أن التدريب الأول بدأ منذ دقائق وهي مجانية حتى تؤكد حجزها.

ابتسمت "فريال" في اتساع وبهجة تومئ لها والعاملة ترشدها للقاعة خاصتها فشكرتها. خطت صوب قاعتها وأصابعها تضغط بتناغم على هاتفها ترسل لشقيقها رسالة بتأخرها عن المنزل لتلقنها أول حصة لها ثم تعتزم بعدها أتستكمل أم تبحث عن مركز آخر.

أنهت رسالتها وأعادت الهاتف لحقيبتها تتطلع للباب المغلق وصوت خافت يصل إليها من خلف الجدران. رفعت يدها بطيئا تأخذ نفسا عميقا تدق الباب في خفوت تبعه الضغط على المقبض. خَفِرت بخطوات سلكتها للداخل مطرقة الرأس وقالت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أصوات عالية تنم على عدد كبير رددت السلام لترتجف رهبة وكأن قدميها التصقت بالأرض غير قادرة التقدم أو التراجع حتى.

عم الصمت والعيون عليها حتى تحدث أهم الموجودين بصوت مشجع مبهج:

- تفضلي.

تمكثت وتلك النبرة تستشعر سماعها لها قديما. لو مرت السنون لن تنساها يوما ولطالما عُرفت بذاكرتها الفتاكة حتى لأقل التفاصيل.. كصوته. رفعت رأسها تبتلع غصتها في صعوبة لمّا وجدته ماثل أمامها على خشبة عالية ويتضح أنه محاضرها!

معلمها بصغرها أصبح محاضرها بكبرها!

إنه هو تقسم ذلك الوجه رغم زيادة قسوته وتضاؤل شبابه إلا أن معالمه لم تتغير بل كما هي. إن أخفقت بنبرته فلن تخفق بتباشيره.

لم تنسه يوما فكيف لا تتعرف عليه. أستاذها ومحاضرها "عصام مختار".

أنهى أوامره تبعها برؤية رسالة شقيقته لتبتلع الجالسة جواره ريقها تنبهه خائفة أن يركز بالطريق. تلفت تجاهها بطيئا بنظرات متفحصة يشوبها استهجان. تمنت لو تسأله لِم الاشمئزاز لكن لا ترغب فقدان وظيفتها. تنفيذ أوامره والتزام الصمت خير لها.

أوقف سيارته أمام الشركة. ترجل فلحقته بعينين لامعتين تطالع المبنى العظيم قبالتها. تلألأت أسنانها تحت ظلال الشمس اللامعة وعيناه الثاقبة الشاردة. حمحم موليا إياها ظهره والجا شركته وهي تتعقبه مبتسمة في بلاهة للجميع. على حين غرة تلبثت تراه يلتزم مصعده منتظرا إياها. ارتجفت فرائصها ونفحت خوفها اصطناعا قائلة:

- عيب.

- عذرا!

- عيب أن نبقى وحدنا بمكان مغلق.

ألصقت بصرها سريعا بالأرض حينما لاحظته يرفع حاجبه وأذناها تلتقط زفرة عصبية منه فدعت ألا يلّح.

مرت ثوان طويلة والصمت ران عليهما حتى التقطت خطوات أنثوية قادمة ناحيتهما. شحب وجهها موقنة اتجاهها للمصعد أي يوجد ثالث معهما وسوف تُضرب حجتها عرض الحائط. أفِدت صوب الدرج تاركة إياه قبل أن يتفوه حرفا. فغر فاه جراء فعلتها يهز رأسه يائسا.

لا تمر ثانية إلا ويفكر طردها لبلاهتها لكن وللعجب لا يريدها أن تنوح إن فعل فيصبر عل عملها يلهيه عن حمقها!

أزالت دموعها ويدها على قلبها المكدوم لم ولن يشفى من فراقه. اشتاقت لأول فرحة أول من لقبها بأمي فأشعرها أنوثتها وهي تحمله ببطنها تملس عليه منتظرة قدوم مولودها الأول بفارغ صبر.

والآن تملس على نفس البطن التي حملته وفقدته كمن تتمنى ولادته مرة أخرى لكن بتلك الأحوال والظروف الجديدة المهيأة لحياة هنيئة بعيدة عما لاقاه على يد عمه ماضيا.

أنّت ألما لفقدان ابنها الأكبر "قاسم". داخلها شوق لرؤياه. حتى صورة له لا تحمل. كل ما تحمله رائحته الزكية التي تداعب أنفها رافضة نسيانها. أدارت عجلات مقعدها صوب غرفتها بالطابق السفلي رافضة مساعدة الخادمة التي عادت للمطبخ تاركة سيدتها تداعب ذكريات الماضي في وجل من طول غيابها.

يقف على منصة رحيبة مرتفعة عن مستواهم بجسده الطويل عريض المنكبين يرتدى قميصا كمن فصل لأجله يضعه داخل بنطال اقتطف لونه من السماء.

يبتسم في جاذبية وقد أطلق لحية خفيفة زادته جمالا. عيناه تلمع ببريق يستدعي تأملهما والهيام بهما. يده تتحرك مشيرة لكل جالس على حدى يستمع لأسمائهم في اهتمام يلصقها بعقله ثم ينتقل للاسم التالي وبسمته محافظ عليها. دُق الباب في أوج اندماجه فأذن للطارق بالدخول.

مرت ثوان حتى فتح الباب وبلَجَت سيدة ضئيلة الجسد مطرقة فلم يظهر منها سوى جبينها وجزء من خدين ممتلئين غزاهما الحمرة. تبسم في لطف يرد السلام وعيناه طافت فضولا أن يستشف معالمها. بكئ فلوّح صوب مقعد فارغ بالصف الثالث متمتما:

- تفضلي.

تجعد جبينه عجبا عندما ظلت محلها دون حراك. قرع قلبه لمّا تبينت قسماتها والحرارة تسري داخله والارتباك تملكه. عيناه ضاقت وذهنه يعمل سريعا يربط ذاك الوجه بعينيه الناعسة بالماضي البعيد يساوره اليقين لشكوكه. مقلتاه تترصد ردة فعلها التي لا تقل صدمة عنه وهي تخطو إلى مقعدها.

تتنفس في توتر بالغ أطرافها ترتعش وانهارت أوصالها. حبيبات العرق غلبت لمعة جبينها تستشعر نظراته الضاربة وجهها. سكن كل شيء وهو يطالبها اسمها فتيقنت الآن علمه لها. إن لم يكن لمعالمها التي لم تتغير كليّا فبالتأكيد لاسمها.

في صبر نافذ ترقب إجابتها وارتكست دقات قلبه سرعان ما دكت صدره هائجة تؤيد الخروج والتراقص أمام مقلتيه اللامعة حد التوهج ما إن التقط إجابتها التي كان في أحر التأهب لها.

- "فريال فارس".

ران الصمت عليهما فتمالك حاله متلفتا للشاشة الإلكترونية بادئا أول تدريب لعام سيغدو مشرقا. أطلق خير ما يملك ليثير إعجابها فتؤكد حجزها وتبقى أمام ناظريه بعدما تركته ماضيا خالي الرؤية!

تسند ذقنها أعلى كفها تترصد حركاته وإدارته المتقنة متملكا زمام الأمور دون توتر. زيلت بسمتها لسؤاله المفاجئ بنبرته الخبيثة حينما انصرف المجتمعون بعد نجاح الصفقة:

- أعيدي الاجتماع على مسمعي.

ازدردت ريقها مرتبكة تجزم أنه يتذكر كل حرف لكن يرغب فقط إثارة حرجها أكثر منه اختبار قدراتها. أخرست مكره باجترار الاجتماع كأنها مسجل يحفظ كل شيء عن ظهر قلب. أضمر الإعجاب رافضا ترجمته لحروف منيرة ونهض منصرفا تاركا غرفة الاجتماعات. تقفت أثره متبرمة كعادتها في الآونة الأخيرة.

قبع أعلى مقعد مكتبه ريثما لزمت هي الأريكة المريحة. راقبت شروده يسند جبينه على كلتي كفيه المنعقدين وتنهداته تلتقطها. مقلتاها تهتز مرتبكة مترددة أن تسأل عن حالته. استجمعت قوتها لكن كان له رأي آخر عندما اعتدل متراجعا للخلف يغمض عينيه في تعب والدوار يصدع داخله:

- سوف ننهي العمل ثم نتجه لمنزلك تعدين عدتك كي نعود لمنزلي.

أومأت له بابتسامة لطيفة رصينة. زايل كل جفن أخيه لمّا كايله الصمت فضاقت عيناه من هدوئها في توجس أن تكون عاصفة أشد أفْنا. نهض عن مقعده يلملم أوراق وهاتفه متحدثا:

- أشعر بالدوار فلنأتي بحاجياتك ثم نعود لمنزلي كي أرتاح قليلا.

- أأنت بخير؟!

تساءلت قلقة فتمتم ببعض الحدة:

- لا أفضل العتَه جواري.. أخبرتك أشعر بالدوار فلِم السؤال؟!

انصرف تاركا إياها تتطلع لظهره في غيظ متسائلة سبب كرهه لها هازئة:

- ها! يشعر بالدوار وخطواته ثابتة عني! حقا لا أحد متعَب غيري هنا.. الرحمة يا ربي.

- "زهرة"!

صرخ بها لمّا لاحظ تأخرها فهرولت خلفه تكاد تلكمه غيظا وهو يستشعر احتراقها من اختناق الجو حوله وكأنها تشتعل فتسلب الأكسجين من المكان ليبتسم بخفاء عليها.

- انتظري .. آنسة "فريال"!

قالها في تلهف عندما انصرف الجميع وتجهزت هي الأخرى لذلك. أوقفتها جملته كما تلبثت ضربات قلبه. رأته يقترب فتمكثت محلها حتى مثل أمامها يفرك كفيه متوترا متلجلجا بحديثه:

- آنسة أليس كذلك؟

كان تقريرا أكثر منه سؤالا. وكأنه يحكم عليها بالعزوبية رافضا إتباعها لأحد. أومأت مرتبكة واتسعت بسمته في حماس يكاد يقفز مكانه كالأبله. حمحم متحكما بانفعالاته يسألها إن كانت تعرفه. عم الصمت والسكون ما لبثت أن أومأت تخبره اسمه فزاد تبسما.

بيدت كافة التكهنات بإقرارها الحقيقة كاملة. قال في توتر بالغ والعرق يتصبب غزيرا:

- أتمنى إفادتك إن احتجتِ شيئا.

أومأت ثانية كمن ترعى صوتها دون حديث. أذنت الرحيل فتنحى جانبا في لهفة مشيرا للطريق تخطوه مرتبكة للخارج.

ما لبثت أن ابتعدت حتى اقتفى أثرها يترصدها داعيا أن تحيد صوب موظفة الاستقبال تؤكد حجزها.. وقد كان. فلتت ضحكة فرحة منه متنهدا براحة يعقد ذراعيه أمام صدره يدقق النظر بها. كبرت الصغيرة فغدت أنثى فاتنة جميلة!

أنهت تأكيد الحجز رغم جزء داخلها يعنفها لاختيارها البقاء جوار رابط من الماضي. ارتجفت وهي تمسك القلم تخط اسمها حتى انتهت. ابتسمت للموظفة مجاملة. لديها رغبة في الالتفات وشيء يحول دون ذلك. تشعر بعيون تراقبها وتتمنى ألا يكون هو. لم تجد سوى المفر سبيلا لطرد الحرارة التي تحرق جوفها تسرع بخطواتها تبتسم كل برهة ببلاهة سرعان ما تمحيها تضبط نفسها.

ينتظرها مذ ساعتين بالخارج وشياطينه تتراقص أمامه. الحمقاء ظلت ما يقارب ساعة تحيي جارتها العجوز تحتضنها باكيتين بمشهد محبب يشع نورا وحنانا على حسابه هو ليتملكه الملل.
أطبق جفنيه يستحضر النوم لكن سلطانه غائب فزفر منصرفا عن سيارته. نظر للأرجاء متفحصا المكان يمسحه بنظرات سريعة.
جفل إثر إلقاء حقيبة ضخمة عنيفة أرضا فالتفت للفاعلة الثائرة متعجبا. كاد يميل ليحمل الحقيبة فصدح صوتها المتذمر محتجة:

- لا ترهق شبابك. تركتني أحملها مترات لِم العناء في أن تحملها لإنشات متبقية؟!

أنغض رأسه وطرف ثغره يتسع بضحكة مستهينة ساخرة يرفع نظارته الشمسية عن عينيه يعود لجوف سيارته تاركا من زمت شفتيها تكاد تلكم حالها لتسرعها. ليتها تركته يحملها ثم تعاتبه بعدها!

مالت تلتقط الحقيبة لترفعها بصعوبة وقصدت سيارته فوضعتها بالمقعد المجاور له عقب عناء تحت نظراته المتعجبة. رفعت بصرها صوبه في حدة وغيظ قائلة:

- ستجلس هي جوارك!

أغلقت الباب عنيفا فزرد عينه عليها يتطلع بالمرآة تجاهها يراها تجلس بالخلف عاقدة اليدين تشيح وجهها ناحية الشباك غاضبة.

حرّر أنفاسه التي وصل عنفها إليها فازدردت ريقها وجلا واهتزت نظراتها الحادة تهون ثوان قبل أن تعاود التحكم بها.

ساد الصمت لحين أن توقف أمام منزله فترجل من سيارته. طافت عيناها اليائسة بينه وبين الحقيبة المتعِبة سرعان ما ابتسمت في روْح وجمام تراه يدور للجانب الآخر ملتقطا الحقيبة. هبطت بلهفة شاكرة إياه بينما التزم هو الصمت.

دلفا للمنزل فاستمعت لجلبة خطى ورجال ونساء يحملون قطع أثاث يدخلونها غرفة جانبية. تساءلت عيناها فتلفت لها بعدما أعطى حقيبتها لعاملين كلفهما بوضعها بغرفتها.

- إنهم ينقلون حاجياتي بالطابق السفلي. سأترك لك العلوي لتكوني مرتاحة أكثر.

امتنت لفعلته وشكرته. اكتفى بهز رأسه يخبرها أن تستجم قليلا لحين موعد الغداء فيستكملون عملهم بمكتبه. انصاعت كقطة وديعة أغرتها قراراته المراعية إياها تزيدها أمانا وطمأنينة بسكناها هنا.

تضافروا حول الطاولة قابعين عداها. ظلت محلها ماثلة تستحي الجلوس فلم تعتد بعد كونها أصبحت فردا منهم. لم يشرع الأكل وعيناه تتجول بين شقيقته الحاملة هاتفتها تطالعه في تركيز ووالدته الشاردة. ازدرد ريقه محمحما في علو بعض الشيء محاولا استرعاء انتباههم للواقفة فيطالبوها الجلوس لكن باءت محاولاته فشلا. ارتبك وكلمات بشق النفس جمعها قد تبخرت ما إن طالعها برهة. عاود الإطراق يفرك كفيه متعجبا حاله. المهمة لا تتطلب كل ذلك التوتر والمبالغة. استدعى جرأته هامسا:

- اجلسي يا "زهرة"!

جفلت متعجبة أنه من بادر. جملته استفاق عليها شقيقته ووالدته فتلهفا تصحيح غفلتهما يؤكدان حديثه مطالبين إياها مشاركتهم فخَفِرت. جلست جوار فريال المبتسمة لها تشجعها الاندماج معهم دون توتر أو وحدة.

بدأ الجميع الأكل حتى تمتم "مهران" بعد صمت دام مزحزحا نظراته عن "زهرة" يصوبها تجاه شقيقته يسألها عن أول تدريب لها اليوم.

ارتجفت فرائصها وأحداث اليوم عادت تدور بذهنها وسؤاله استحضر شياطينهم. أومأت مصطنعة البسمة تطمئنه وتعيد على مسامعه ما سردته لوالدتها عن يومها وكيف استفادت كثيرا بأول حصة لتقرر تأكيد حجزها واستكمال التدريب حد النهاية.

تغاضت عن مقابلتها لأستاذها بمدرستها وكأنه لم يكن محتفظة بالحدث الهام لحالها تقنع نفسها أن فعلتها ليست إلا تجنبا زُكّة أخيها إن علم حضور رابط بالماضي يحوم حولهم فيعزم قطعه وذلك ما لا ترغبه!

ختم حديثها بتربيت أعلى رأسها فخورا بإنجازها وتعودها السريع على العالم الخارجي تبعته دعوات والدتها. راقبتهم "زهرة" مبتسمة في هيام تدعو لوالديها الرحمة. كم كانا محبين يعم الحنان والسكينة قلبيهما فتستشعر الطمأنينة والحب بينهما بجوف أحضانهما.

غزت الدموع عيناها لذكراهما فلاحظ ذلك وانتابه القلق. تسرّع متسائلا سبب بكائها غافلا عن انهيار قناع جموده. رفعت أنظارها تتطلع له ولمن حوله جميعهم قلقين عليها فابتسمت تطمئنهم:

- لا شيء فقط تذكرت والديّ رحمهما الله.

- رحمهما الله.

تمتم الجميع بها يبادلونها البسمة داعمين إياها خاصة هو الذي أشفق عليها. اهتزت نظراته يحاول التحكم بأعصابه بعدما ترك زمام الأمور لمقلتيه يراقبها بفضول طفل يعشق التطفل متخطيا الحدود الفاصلة بينه وبين خصوصيات الغير.

انقشع النور وحل ستار الظلام بعدما تناولوا العشاء. عادا لعملهما بالمكتب والباقيتان انفردتا في غرفتيهما يداعبان ذهنيهما بالتفكير.

ضحكة خافتة فلتت من بين كرزتيها تظللهما بكفها غير مصدقة أنها قابلته بعد سنوات طويلة. سخر القدر منهما فكان معلما في الصغر وبات مدربا في الكبر. عاصر عهد المراهقة ولازمها عقب البلوغ.

أسندت ظهرها على ظهر الفراش وإحدى أصابعها تهبط فيعلو الآخر في تناغم وموسيقى وهمية يتخيلها قلبها بدقاته المعانقة أعزوفة ناعسة تزيدها رغبة في النوم. التقطت وسادة صغيرة جوارها تحتضنها معتصرة إياها وجهها يغوص بها مستشعرة نعومتها وتنهدات تماثلها تُكدس الجو بالشاعرية.

كانت تتأمله دون غفلة لكلماته وأوامره. انتهى فمنحها أوراق صفقة الغد محذرا ضياعها. أومأت بابتسامة لطيفة على وجهها الصغير ليبادلها بأخرى أشد خفوتا لكن ظاهرة بالقدر الكافي لملاحظتها. لاحظت ربكته مستقر البصر عليه فتأرجح حاجباها تمط شفتيها متعجبة. دعس عجبها ويده تشير في توتر لغرته ثم لها.

صمتت وتجعد جبينها ثوان حتى أدركت مقصده. أضمرت غرة شعرها تحت حجابها بلهفة فنهض عن مقعده يوليها ظهرها يخلصها من وطئ الخجل.

مرت ثوان طويلة تضبط حجابها ثم نهضت متسائلة في خفوت عن حاجته لشيء آخر. نفى وهو على حالته من إيلاء الظهر. مكثت محلها مترددة هنيهة ثم انصرفت لأعلى تريح جسدها بعد يوم كامل من العمل. رأت الساعة التي قاربت منتصف الليل مدركة مبرره أن تسكن المساعدة الخاصة بمنزله.

استشعر اختفائها فطالع أثرها شارد البال وتخامر ذهنه. صدره يعلو ويهبط بأنفاس هادئة بالكاد يسمع هسيسها. ابتسم في صفاء ينظر لمقعدها موضع جلوسها وخطا تجاهه حتى بلغه. تلمس ظهر المقعد محافظا على ابتسامته ما لبث أن ابتعد كمن صعق. تأمل كل جانب بالغرفة والعجب تمكن منه لأفعاله غريبة الوقع خاصة شروده بها بينما يلقنها مهامها راجيا ألا يتعثر لسانه لانشغال بقية جسده بمراقبتها.

زفرة طويلة خرجت تبعها هجران غرفة مكتبه قاصدا المجاورة حيث مكمن نومه الجديد بجانب خاصة والدته.

ألقت جسدها أعلى الفراش منقلبة تارة على بطنها وأخرى جانبها عودة لبطنها. أسندت خدها أعلى ذراعيها المنعقدين أسفل رأسها تتثاءب في نعاس ووجهه آخر ما نسجه ذهنها ثم هوت في جعبة السبات منتشلا تعب وإرهاق بدنها.

بمكان حديث العهد لم نره مسبقا حيث منزل صغير قليل الإمكانيات. يجلس أرضا جوار فراشه يثني قدم بجانب الأخرى الممددة، عيناه تلازم السقف، وابتسامة تداعب قلبه قبل ثغره يذّكر لقاؤهما اليوم فيقهقه وذهنه يعود إليها متعجبا القدر الذي جمعهما مرة أخرى وألقاها بطريقه بعدما ظن بتركها المدرسة انصرفت عن حياته فيلاقيها اليوم بعمله يعاود تدريسها مادته وكأن الزمن توقف منذ سنوات بآخر حصة حضرتها له ثم عاود العدو اليوم!

طاقة عنيفة تتسلل داخله فيرغب الرقص والصياح كمنتصر بعد عناء عراك الحياة. أطبق جفنيه يحفظ صورتها وعبق رائحتها الفواحة لا تترك أنفه. نظراتها البريئة كأنها مازالت طفلة ومراهقة صغيرة تحيطها تضفي هالة جذابة لمن يراها. وما هو سوى الأعجف تحت سطوة جاذبيتها.

ارتعش جسده بوصول فكرة مقابلاتهما طويلا بالمستقبل. سوف يحرص على التعرف عليها وإدراك كل ما يخصها بقلب مطمئن أنها في حال أفضل الآن بعدما تآكله الخوف مسبقا أن تكون تركت مدرستها لمصيبة حلت عليها أو شَظَف تمكن من عائلتها قسرها أن تترك تعليمها.

الآن عادت الأمور لمجار أفضل والقدر يعطيه فرصة جديدة سيتشبث بها قدر استطاعته.

امتحق القمر لما وفد غريمه وبزغت الشمس بأشعتها الدافئة تعم أرجاء المنزل تزيده دفئا ومحبة عدا غرفة عمّتها الجلبة.
صاحبتها تركض في توتر تزدرد ريقها سريعا كفاها لا يهدآن تارة على جبينها تعيد خصلات شعرها وتارة ينقبضان على بعضهما كمن تحاول اقتلاعهما. تطالع ملابسها غير راضية. تستشعر عدم تناسقها وللمرة الأولى تهتم بما ترتديه فاليوم التدريب الثاني لها ولا تريد الظهور بشكل غير لائق. أشرق وجهها وتركت غرفتها يتلحف شعرها بوشاح خفيف. مثلت أمام باب غرفة المرجوة صاحبة الذوق الرفيع والملابس المنمقة تقصدها لتقديم العون لها.

طرقت "فريال" باب الغرفة تتأهب صوتها لكن لم يأتها. فتحت الباب بهدوء تدلف مطرقة الرأس على استحياء لكنها في أمسّ الحاجة لها كما حان وقت استيقاظها لاقتراب موعد الفطور.

وقفت أمام الفراش تقهقه بخفوت تراها نائمة بشكل طفولي مضحك ورقبتها مالت عن مستوى جسدها. يد بآخر الفراش والأخرى تختبئ أسفل الغطاء. هزت جسدها في رفق تناديها فتثاءبت "زهرة" قبل أن تفتح عينيها في لهفة لمّا أدركت ما حولها. نهضت في خوف زال تدريجيا عندما رأت "فريال" مبتسمة في وداعة قبالتها تطمئنها بكلمات قصيرة لتزفر مرتاحة. استمعت لها تطلب مساعدتها في تنسيق ملابسها. ابتسمت بشدة وبهجة هاجرة الفراش تضبط ملابس نومها التي لا تظهر شيئا. التقطت حجاب خفيف تغطي شعرها ثم خرجت مع الممتنة لغرفتها.

مرت دقائق طويلة وأصابع "زهرة" الرفيعة تعبث داخل خزانتها تنتق في حرص ما يعجبها لتنسقه مشكلة ملبس كامل من رأسها لأخمص قدميها. التفتت عندما سمعت صوت تصفيق وتهليل من شقيقة رئيسها الطيبة فرحة وقد أرضاها ما اختارته تشكرها بكلمات طويلة في عرفان لمساعدتها. مازحتها ضاحكة ثم تركتها سريعا بإدراكها الوقت وتأخرها فهرولت لتجهز نفسها.

وضبت "فريال" حالها وهبطت الدرج بحالة جديدة مشرقة الوجه والنشاط والطاقة يحتلان كل إنش بها حتى لاحظت والدتها وشقيقها فابتسما خفية لحيويتها.

يتناولون طعامهم في هدوء منافٍ عيناه الصاخبة على الدرج مستقرة يختلس النظرات محاولا لمحها لكن لم يجد سوى الفراغ فأطرق الرأس متطلعا لطبقه. عنّف نفسه لتعديه على خصوصياتها.

مرت دقائق قليلة حتى بشّ هنيهة أغمدها بإتقان يستمع لخطواتها الراكضة سرعان ما تحولت لهادئة رصينة. قهقه في خفوت عليها وقد أخذت الدرج ركضا لتصطنع الهدوء بعدما تدانت منهم.

انتقلت عيناه بين شقيقته ووالدته يرجو انتباههم ليأذنوا لها الجلوس. رفع حاجبيه عجبا عندما جلست وحدها وكأنه حق مكتسب. عثرت على راحتها سريعا بينهم واعتبرت حالها فردا منهم. تخلت عن خجلها فتبعها بتخليه عن صدمته يبتسم يائسا من تصرفاتها التي ستودي به يوما.

انشغل الجميع بطعامه حتى أنهت "فريال" أولا وودعت الجميع منصرفة لوجهتها تبتسم عميقا تطرد ارتباكها تستحضر شجاعتها وهدوءها.

أنهى طعامه هو الآخر منفضا كفيه ببعضهما آمرا إياها الاستعداد. مضغت طعامها في تبرم وغيظ لعدم إتمامها إياه. لم تكد تذعن حتى ابتسمت منتصرة ووالدته تأمره الجلوس لحين انتهاء "زهرة" من فطورها تماما.

لفرط الغبطة لنصرها ألقت قبلة في الهواء صوبها! انفجرت السيدة ضحكا وشاركها "مهران" مرغما ذاهلا طفولتها كأنها صغيرة في الثالثة لتوها تعلمت التعرف على غيرها فتتعثر بمعاملاتها!

قدمه ترتعش فتضرب الأرض. غلبه الشوق والتوتر فتصدّر باب القاعة ينتظرها وقد فرغ صبرا. يتطلع لساعته بين الفينة والأخرى يعلم أنها ليست متأخرة وليست باكرة بالقدر الكافي! نفخ أنفاسه يحترق داخليا حتى لمعت عيناه واتسعت يراها تدلف بهالة جذابة تسحق أي جمال جوارها تعتلي عرش الرُواء والأنوثة. يتخيل وهجانا يصونها ببشاشتها وبسمتها الهادئة الخجولة مع إطراقها. أذناه لا تترك خطوة إلا وتحرص سماع عزفها تدب الأرض في حياء. يتطلع لها في عته منبهرا لجمالها خاصة ملابسها الأكثر أناقة عن أمس تبرز بها هالتها الفتاكة تهلك قلوب الرجال وتحترق عيونهم لرؤياها.

نفخ صدره يراها تقترب كاتما أنفاسه حتى مثلت أمامه. رصد ارتجافها لما تفاجأت به ولم تكن قد رأته حين دخولها.

حافظت على هدوئها ثم توقفت أمام المركز كمن تعيد السؤال على عقلها. أحقا يريد الدخول وخوض ما يريده قلبها؟!

صرخ في صخب يدفعها للداخل فلم تفق إلا وهي بمنتصف المركز ولم يبق أمامها سوى التقدم. تستشعر ارتعاش قدميها وخارت قواها. أنفاسها تتسارع وتيرتها محاولة الثبات فخفقت محاولاتها بارتجافها وهي تستشعره أمامها. رفعت رأسها بطيئا تزدرد ريقها في توتر يماثله لتبادله ابتسامة مترددة. حمحمت متطلعة للطريق المسدود خلفه فأدرك أنه العائق ليتنحى جانبا معتذرا. أومأت منصرفة سريعا تتوارى خلف جدران القاعة ليميل وجهه يحاول رؤيتها من الخارج. لا يريد الدخول مباشرة خلفها كي لا تعلم أنه كان بانتظارها ففضل البقاء خارجا لبعض الوقت يجعلها تعتقد استقباله الجميع!

مر وقت طويل سرقه الزمن منهما فتنهد وفقد جنّد كامل قوته يسير بخطوات مصطنعة الثبات. وقف على منصته العالية يستدعي صوته بادئا عمله وعيناه بلا إرادة تلتصق بعينيها التي أُسرت داخل مقلتيه. رغم تعنيفها حالها كي تنظر أرضا ما استطاعت سوى بعدما أدركت خطؤها وتصرفها المشين. ما تفعله ليس إلا خيانة لعائلتها التي تشهد خلقها وقبل كل شيء خيانة لربها. تغضن جبينها عاقدة النية التزام عينيها الأرض رافضة رفعهما تجاهه.

لاحظ ضيقها فتعجب وزاده عجبا تجنبها التطلع إليه طوال محاضرته. فترت نبرته الحماسية وطاقته تشتتت بعدما كدّسها بصعوبة.

يسير بآلية فتقلده كالظل. تطرفت الوقوف على أناملها عندما سكن محله. أدركت لم توقف عندما رأت المصعد يحوي موظفا وموظفة. فقد وجهها دماءه واهتاجت قسماتها. بصرها ينتقل بين المبتسم في خبث ولمن بالمصعد ينتظران دخول مديرهما.
لحظات عسيرة قضتها حتى حضرت راحتها عندما أشار لهما أن يسبقوه. هدأ نبضها والمصعد يعلو ثم يعود بعد دقائق فارغا أثناء تمايل جسدها في ملل. ثبت المصعد وقصده "مهران" منتاغا.

ظلت محلها تنظر له بابتسامة لطيفة انقشعت بحديثه الماكر ونظرته الخبيثة متمتما:

- الآن حجتك جاهزة .

أنهى حديثه يشير للدرج فغلبها الحرج. تمنت لو تنشق الأرض كي تبتلعها وتلتهمه هو الآخر دون عودة لوقاحته بإفشاء علمه حجتها الكاذبة. عزمت أن تبطل ظنه فدلفت المصعد بخيلاء ونظرة متحدية خلفها تزعزُع ووجس. ضاقت عيناه يخترقها بنظراته ثم حرك كتفيه لا مباليا.

غزت حبيبات العرق جبينها تترصد جزئي الباب يعزمان الاجتماع. انتصرت رهبتها كعادتها فحالت دون التقائهما وخرجت.

رفعت رأسها تأبى الانفلال كليا فسارت بثبات مصطنع للدرج. ما إن أفلت عن ناظريه حتى علت ضحكاته الصاخبة وعيناه دمعت يمسح وجهه مختنقا.

تقابلا بالطابق العلوي بعدما حرصت الركض سريعا في لهفة. وصلت بعده بمدة قليلة قرر هو انتظارها. لمّا لمحها مثّل المشي أمامها. لحقته وأنفاسها ثائرة ويدها أعلى قلبها تلتقط دقاته المتلاحقة وجسدها أُرهق من الدرج الطويل. استشعر كللها فأبطأ خطواته لحين وصوله غرفة مكتبه. جلس على مقعده الوثير زافرا قبل أن يطلب إخباره باجتماعاتهم ومشاغلهم اليوم.

أخذت نفسا عميقا تُعلمه ما لديهم يستمع باهتمام مهمهما بين الفينة والأخرى. قطع حديثها العملي طرقات باب متتابعة فأذن للطارق بالدخول.

دلفت مساعدته بالشركة تبتلع ريقها هامسة في وجل:

- سيدى! هاتفني السيد "وليد العراف" للتو يخبرني بتراجعه عن الصفقة.

انتفض من مكانه ليهوى مقعده عنيفا وجحظت عيناه. ثارت أنفاسه كثور هائج ينقبض كفاه كقلبه المشتعل أحيحا. لم يحدث يوما أن رفض أحد التعامل معه.

احمرت عيناه والعروق نافرة تكاد تهجره. رفع كفه المشتد صوب مساعدته فانصرفت فورا تاركة العصفورة المرتجفة أمامه خيفة انقضاضه عليها.

دار بالمكتب وتنفسه العالي يقتفي أثره. فكه اشتد حد التشنج. أثير قلقها فزلفت بضع إنشات محافظة على مترات بينهما حيطة من حالته:

- اهدأ سيدي و..

- اخرسي! وجهك الدميم من ظلل النحس علينا.

صاح عليها وسكين جلف من الكلمات غاص بقلبها مفرغا روحها بجرح غائر ينزف دموعا قبل الدماء. فُكَّت عقدة حاجبيه ما إن أدرك فعلته الحمقاء. يجور على حقها بالكرامة والاحترام لجور الغير عليه. أخذها بطريقه يعاقبها هي دونا عن غيرها!

لعن غضبه وأشاح وجهه هنيهة يستجمع هدوءه ثم التفت لها. خارت قواه وتخامرت أعصابه ما إن لمح لمعة عبراتها ووجهها المنتفخ. غصة مريرة تشكلت بحلقه وقلبه تحطم فتاتا. عقله جمّع جيوشا يهاجم جسده لجرحه الملاك الصغير قباله.

ازدرد غصته وآن منها مهدئا حاله قبل محاولة تهدئتها. أعاد شعفة شعر رأسه للخلف متوترا متعثر الحديث:

- أوه أنا .. أنا..

لم يطق لسانه جمع جملة كاملة وحروف الاعتذار تتعثر بطريقها. هزت رأسها يمينا ويسارا يائسة وشهقات خافتة بدأت تتحرر من معتقلها مزامنة مع تحرر لآلئ عينيها. زمت شفتيها باكية مختنقة وركضت للخارج منصرفة لكن صوتها ظل بالغرفة يتردد داخله فلهف والتاع. غمّض عينيه واليأس ظلله هو الآخر كتفاه تهدلا يعاود النظر لأثرها وأصابعه تتحرك كمن يتخيلها أمامه فيحاول اعتقالها ثم إرضائها.

انتهى التدريب الثاني وانصرف الأغلبية لتظل هي والقليل ينتظرون تحرك من أمامهم وهو يراقبها برغبة خلق حديث معها لكن لا قدرة له.

عزم على تلك الخطوة فناداها. ارتعدت محلها وقد تحقق ما دعت ألا يقع. التفتت بعد يأس من صمته حينما أصر الاستدعاء فتركت الصف مقتربة منه تاركة مسافة ليست بالقليلة بينهما.

حمحمات خافتة تبعها ابتسامة مهتزة يبغي بها تغلب جذل روحه على مرج لبه:

- يا للعجب! أدرسك في الصغر وأستكمل ذلك في الكبر!

جاملته بابتسامة لم تقل ارتباكا فاحمر حرجا وفضّل الصمت احتراما لرغبتها بعدم الحديث.

كانت تتآكل كي تردع سؤالا يدور بخلدها لكن فضولها قد دحَر:

- كيف تعمل هنا والمدرسة تبعد كل البعد عن القاهرة؟!

أخذ نفسا عميقا واتسعت بسمته لمبادرتها الحديث وكأنها أطلقت كلمات محبوسة داخله. انفجر بكلمات طويلة يعلمها تعرضه لأحوال وظروف عصيبة أجبرته ترك المدرسة التي لم تعم عليه بالخير يوما لمرتبه الضئيل يكاد يكفيه لنصف شهر وأقل فيقضى البقية في الفاقة. حسم أمره على الرحيل منذ سنوات للقاهرة كي ينقّب عن عمل جديد بعدما فشل بإعطاء الدروس ببلده القديمة لفقر من بها يحايلونه الصبر حتى نفذ ما بجعبته. عزم الهجران لبلد أكثر تحضرا. بعد بحث طويل وجد مركز تلقين اللغة الإنجليزية فخاض التجربة لا سيما أنه نابغ بها ويحمل كتبا صوتية عديدة تعلم منها النطق الصحيح. بعد تدريبات عديدة مديدة الزمن أتقنها تماما فوافق المركز على تعيينه بمبلغ جيد يكفيه.

أنهى حديثه الممل للجميع عداها هي ذات العينين الشغوفتين. خلُصت كلماته فابتسمت متمنية التوفيق له.

ران عليهما الصمت فلاحظت خلو المكان من الجميع عداهما. هرعت للخارج آذنة الرحيل قولا وفعلا دون انتظار ردا.

ثوان واختفت تاركة أثرها يطالعه بابتسامة واسعة تحولت لضحكة خجولة. فرك شعره الخلفي متنهدا بعمق ولقاؤهما القصير يطوف بجوفه يحيا عليه لحين لقاء آخر.

سارعت بخطواتها قلبها يرتعش وشفتاها تنفرد مبتسمة دون إرادة منها. ضبطت حجابها متوترة تحتضن حقيبتها لصدرها هائمة.

يتلاعب بالطعام ولا شهية له. آوت عيناه الدرج علها تهبط لكن كيف وهو من صرخ بها قاذفا شحنات غضبه بوجهها ولا ذنب لها.

انقلب ثغره لمّا تذكر صمتها طوال اليوم واكتفائها باختصار الرد. كلماتها تنافي طبيعتها المحبة للحديث الطويل ووجهها لم يفارق الأرض تخفي عينيها اللامعة عنه مهما حاول لفت انتباهها ما قابله إلا الصمت والعبوس.

طوال الطريق للمنزل وهي صامتة تستمع لأوامره وتومئ إن استرعى انتباهها. يتمنى أن تجهل شيئا فتسأله لكن لم يلق سوى هز رأسها شاحبة الوجه حزينة المعالم مثله تماما.

أكعن "مهران" عابسا يتمنى لو يستمع لأصواتها الراكضة فالمتهادية وبسمتها التي لا تفارق وجهها أو حتى حديثها الأرعن دون تفكير. سيتحملها بكل أوضاعها وتقلباتها لكن تعود بمرحها تضفي روحا لروحه المظلمة خالية من المتع سواها هي.

أفاق على سؤال والدته المتكرر لشقيقته عن غياب "زهرة" لتبدي أخته عدم علمها طالبة توفير خصوصيتها علها مشغولة بشيء ما. تعانق جفناه يخيل إليه صوت نحيبها وحالة مزرية تدمع العيون فاشتد فكه. ألقى الملعقة بطبقه منصرفا لغرفته يتخفى بها كي لا يريا آلامه. نظرتا لأثره متعجبتين ما يحدث اليوم.

أترس باب غرفته بعدما رمق الدرج لآخر مرة كمن يرجوها النزول. لم يطل ما رغب فدلف قابضا على كفه يتمنى لو يقتلع لسانه الغبي الذي لم يراعِ مشاعرها الرقيقة مثلها. انتوى الاعتذار غدا مهما كلفه من تنازلات فقد أخطأ ووجب طلب الغفران.

طلعت الشمس السخية تلقي أشعتها بالأرجاء تضفي نورا وسطوعا للكون. بلا روح تنتقي ملابسها دون حرص في فتور. عيناها منتفخة لطول البكاء أمس تنحو كمن فقدت عزيز عليها بل فقدت فعليا لكنها كرامتها التي أهانها وكأنها حائط يتصدى ضرباته إن جار أحد عليه. أخذت نفسا عميقا رافضة الانفجار بكاءا. يكفي صداع يلازمها منذ الأمس لتتهرب منه بالنوم. باستيقاظها فاق معها يحوم حولها مرة أخرى. تكاد رأسها تنفجر وعيناها تؤلمها احمرارها ملحوظ. تلقفت أنفاسها وضبطت حجابها ثم هبطت لأسفل بلا مرح تسير كعجوز متهالكة.

اعتدل قليلا بجلسته وأشرق وجهه يستمع لخطوات هادئة. تجعد فارق حاجبيه وانتزح البشْر بتغرُّب ركضها. أدرك عظم الجرم المرتكب فأفقدها حيويتها التي أحبها!

عيناه تنحاز أقصى اليسار عله يراها حتى استطاع بعدما أصبحت على بعد إنشات من الطاولة. ازدرد ريقه متوترا أصابع قدميه لا تنفك عن الاضطراب أعلى وأسفل كتفاحة آدم المنتفضة بمسكنها. أذناه تلتقط نبرتها المتحشرجة تطمئن والدته المتسائلة تغيبها أمس فتجيب كذبا تعرضها لبرد أرهقها لذا قررت ملازمة فراشها. كبا وجهه يعلم أن كلماته الوحيدة التي أتعبتها بحق.

راقب مضغها للقليل من الطعام ففقد شهيته كأمس. أُضرم قلبه فنهض تاركا الطاولة عازما الانصراف.

لا طاقة للأكل لكن فضلت الجلوس والتظاهر كي لا تخضع لاستجوابات أخرى. ما إن لاحظن نهوضه حتى همت هي الأخرى فحال دون ذلك تحريك كفه نافيا. توتر طالبا أن تظل محلها وسيسبقها للمكتب ريثما تتناول طعامها. لو كانت بيوم آخر لهرعت ركضا خلفه وأغضت العين عن طلبه لكنها لا تطق وجهه فظلت محلها تتغيب قدر إمكانها تكتفي بالابتسامة للحنونة وابنتها كلما نظرتا إليها في بعض الشك.

يدور بمكتبه يمينا ويسارا كمن عدا لساعات. تجمد محله يستشعر مقبض الباب يتحرك بعد طرقات خافتة. متيقن أنها هي فالكون خفُت بعد صراخه وكأنه استمد صخبه من طاقتها لتصبح خائرة القوى عاجزة الحال. وكم يؤلم لبه رؤيتها هكذا سالمة مطيعة.

راقب خطواتها الهادئة في فتور. مثلت أمامه على بعد إنشات مطرقة رأسها كخاضعة. قبض على كفه حانقا وهمس يعلمها ذهابهم للشركة مبكرا لكثرة الأعمال الملقاة على عاتقهم. كعادتها مؤخرا قابلته بإماءة صغيرة لا أكثر ولا أقل.

تنهد والشجى لا ينفك عن الطواف. تتعقبه منصاعة لا جهْد لها أن تعاتب وهو لا أزْر أن يأسف.

كانت "فريال" تترصد الأوضاع صامتة حتى انصرفا فتقارب رأسها من الطاولة كوالدتها قاطعين المسافة بينهما متسائلة:

- ماذا يحدث هنا؟!

ابتسمت والدتها وإتصّت أثر منقلبي الحال بعينيها هامسة:

- لا أعلم تحديدا لكن عساه خيرا.

زادت عقدة حاجبيها تستفسر مكنون كلمات والدتها. زادت بسمة "أمينة" تستشعر أن كل منهما سبّب الانقلاب والحزن للآخر. وطالما يتأثران ببعضهما إذن هناك رباط بينهما.

لن تغفل نظرات ابنها المختلسة قاصدا "زهرة" ظنا أنه يخمرها غير مدرك عيون والدته المتفحصة في حرص لأدق ما يحدث حولها. أكملت طعامها وابتسامتها لا تفارقها تدعو أن يحدث ما تتمناه ويشق ابنها طريقه العائلي فضلا عن الغوص في الطريق العملي ناسيا حقه بالزواج قبل أن يشيب فلا يجد من ترضاه.

مطت "فريال" شفتيها تحمد ربها ناهضة وقبلت جبين والدتها منصرفة هي الأخرى لآخر تدريب لها بهذا الأسبوع فتقبع بالمنزل ثلاثة أيام دون انقطاع ثم يحين أسبوع جديد لرؤياه!

خطت صوب المركز تصاحبها عزيمتها بعدم اقتراف خطأ. لو ناداها ستتجاهله لحين إنهاء أيام تدريبها بسلام دون خيانة ثقة عائلتها. ما إن لمحته حتى أسقطت بصرها وتخطته. لم تعبأ بمن تحيّنها متلهفا على الباب. تطلع لظهرها متهدل الكتفين يائس الملامح وانتظاره ذهب سدى.

أوقف سيارته وأطبق جفنيه قائلا بعدما لاحظ استعدادها الترجل:

- أعتذر.

سكنت يدها على المقبض لا تصدق ما سمعته. أيعقل أنها تتخيل؟! تلفتت سريعا صوبه متسعة العينان حتى ضاقا بتقابل حاجبيها مطالبة تفسيرا لما تهيأت سماعه. أكد مكررا اعتذاره متعثر الحديث والكلمات:

- أعتذر عما بدر منى .. لم أقصد ذلك.

زمت شفتيها في حزن بالغ هامسة باختناق كطفلة تعاتبه:

- وصفتني بذات الوجه الدميم والنحس.

نفى سريعا متلهفا تصحيح خطأه يصيح في اندفاع:

- كيف تصدقين ذلك تعلمين جيدا مدى جمالك ولطافتك.

تيبس لمّا أدرك حماقته. رحبت "بلقيس" لإطرائه الذي أرضاها فأنساها شجنها. ابتسمت في حياء بينما هو تمنى لكم نفسه لاندفاعه بالحديث حتى بدت ابتسامة خافتة سعيدة لمّا رأى إشراقة وجهها والتقط ضحكتها التي اشتاق إليها. تخلص من وطئ الحرج كل ما يشغل باله أن مسامحتها له ببساطة تدل على مدى نقائها وبراءتها. لم ترد سوى اعتذار.

وبعد مكابرة وعناد استسلم للأمر الواقع أنها أصبحت تشغل حيزا كبيرا بحياته رغم المدة البسيطة التي قضتها معه لكنها كافية لجعله يتخلى عن روتينه وعاداته لأجلها ولأجل ضحكتها المطربة كمعزوفة ينساب معها ودقات قلبه تتراقص على ألحانها.

استفاق من شروده وهي تهبط من السيارة بحركة طفولية كمن تقفز وابتسامتها لا تفارقها فقهقه داخله عليها وفعل هو الآخر متمتما قبل أن تسبقه لسرعتها:

- أوه اختلط عليك الأمر أيتها الزهرة.. لقد اعتذرت فقط ولم أوكلك إدارة الشركة لتسبقيني هكذا!

توقفت حرجا ثم أفسحت له الطريق. انتاغ يائسا وتقدمها حتى وقفا أمام المصعد. رغما عنه تعالت ضحكاته بالعذاب اليومي لها مع حججها الفارغة لعدم اتخاذ المصعد كي يتوارى خلفها خوفها. كشفها منذ أول مرة ولم يهتم بالبداية حتى عشُق مشاغبتها وإثارة خجلها لكن فليرحمها قليلا.

كانت تترصد كالصقر ظهره والمصعد الفارغ تعض أطراف أصابعها كمن تخطط لحرب عالمية جديدة. تأخذ الحيطة داخلها تعد الردود لأي سؤال أو كلمة فجائية منه. شهقت عاليا وهي تراه يحيد صوب الدرج. توقف ثوان والتفت إليها غامزا ثم عاود صعود الدرج.

ظلت على وضعها ثوان عقب أن ظلل كفها ثغرها وحرجها تضاعف متيقنة كشف أمرها. لكن ما يثير عجبها صعوده الدرج معها. حركت كتفيها بلا اهتمام تتبع المبتسم بروح جديدة حضرت بحضور بسمتها الغائبة المنيرة.

يجزم شرودها طوال تلقينه فأثير ضيقه من نفسه قبلها. شيء داخله يمنعه توجيه الحديث إليها فيفتضح شرودها أمام الجميع يقودها للبكاء والحزن كما فعل بصغرها. لا يريد أن يعيد الكرة.

أنهى محاضرته بصعوبة بالغة والتيه ينتقل إليه يدعو عدم التعثر. انتهى وزفر براحة يراقب استعدادهم للانصراف فارتبك مقررا استدعائها.

تتعرق كمن داخلها حربا. عزمت الرحيل دون حديث معه فتحطمت آمالها بندائه. تغضن جبينها في موجدة من تفوهه اسمها دون قيود وكأنه فرد من عائلتها.

التفتت برأسها تستحضر الحدة ومعالم الحفيظة متحدثة عاليا:

- أعتذر سيد "عصام" لا وقت لي للحديث.

ضغطت على حروف "سيد" كمن تأمره أن يلتزم حدوده. أشاحت وجهها عنه تخترق الصفوف للخارج. قلبها يقرع طبولا وتباشيرها انقلبت غمة وعتابا لحالها على حديثها الوقح. كان من المفترض أن تكون أقل حدة وتلزمه حدوده بما هو أكثر احتراما من ذلك. هزت رأسها طاردة كل شيء فحدث ما حدث وانتهى الأمر. توقف تفكيرها ثوان وتلك الكلمات تطرق باب ذهنها مرة أخرى وكأن الماضي يعاود الحدوث.

تطلع لأثرها ذاهلا ردة فعلها. اشتد فكه غاضبا من إهانتها وصدره اهتاج كوتيرة أنفاسه المتعالية. تخللت عيناه خطوطا حمراء يسبها داخله ويسب حاله معها. هو من قلل من شأنه لمّا خلق حديث بينهما. فليعد لمعاملته المحدودة مع الجميع ويلزم كل مكانته.

تطلع لأثرها كمن يعاتبها. عيناه هجرتها الحياه لتبقى كلماتها ترن داخله كنصل حاد يقطعه إربا وما مضي قد حضر.

همهمت له بنصف عين بعدما أخبرها سفرهما غدا للإسكندرية لمعاينة موقع من أجل صفقة جديدة. تفاجأ بالطرف الآخر يريد عقدها مع شركتهم فبشّت لقرب رؤيتها البحر كما تمنت يوما. استكان الاغتباط وضاقت عيناها ليتوجس من تغيرها المفاجئ متراجعا بظهره للخلف. رفع حاجبيه كمن يستفسر تغيرها فانبجست معاتبة بنظرات ضائقة:

- إذن لست وجه نحس كما قلت؟

ظل ثوان على صدمته سرعان ما انفجر ضحكا حد السعال محاولا الهدوء. راقبته خيفة من انتفاخ وجهه ثم زفرت مرتاحة بعدما هدأ. أزال دموع ضحكاته الصاخبة هامسا بابتسامة حانية:

- لا.. لست نحسا أنتِ تميمة الحظ.. خاصتي.

أنهى حديثه في خفوت شديد. لم تلتقط آخر كلمة لترفع رأسها بخيلاء فرحة لمدحه بها. حقا هي تميمة حظ لها قبله. فمنذ قدومها وهو يترك عمله باكرا لأسباب عدة فترتاح هي من عناء العمل!

مرت نصف ساعة صامتة جواره بالسيارة. ملتاعة للغد وتخطط مقررة الاستفادة من عملها في تحقيق حلمها برؤية المياه تحت الأشعة الزرقاء لامعة تعكس ضوء الشمس وكل ذلك قبالتها تمتع عينيها به.

أوقف سيارته يختلس النظرات إليها وابتسامة هادئة تحتله حتى تعجبت والدته من حالهما. قد تغيرا كل التغير عما كانا عليه صباحا. كاد يلتصق حاجبيها بالسقف لشدة عجبها مما تراه أمامها. ضربت كفيها ببعضهما مقررة عدم التفكير بهما مرة أخرى. فلتتركهما يصلحان شئونهما بنفسهما. يتضح أنهما ليسا بحاجة من يصلح بينهما.

سلما على "أمينة" واتجه لمكتبه بعدما سأل عن شقيقته التي بالأعلى تغير ملابسها. أعلم "زهرة" أن ترتاح نصف ساعة وتهبط للغداء ثم يكملان العمل بمكتبه يعدان عدتهم لسفر الغد فقد يدوم ثلاث ليال أو أكثر. لم تقدر على التحكم بنفسها فما إن علمت مدة بقائها الطويلة حتى قفزت فرحا محلها. كبا وجهه صدمة كوالدته الضاحكة. تشرب وجهها حمرة الخجل وفرت لغرفتها تاركة إياهما متعجبين حماقتها.

التفتت "أمينة" لابنها ضائقة العينان تراه شاردا بأثرها مبتسما. مقلتاه أجّت كشعلة ملتهبة لم ترها سوى بنظرات زوجها رحمه الله. تنهدت داعية له الصلاح وأن ينال مراده أيا كان.

تحرك لمكتبه يكاد يقطم شفتيه متذكرا البهجة بحضرتها. لا يتعجب فعلتها فهو من فرط سعادته وطاقته الغريبة يكاد يقفز محله ببلاهة مثلها.

ألقت "فريال" فستانها بعدما ارتدت ملابس بيتية وأبدت بالفراش زافرة والضيق يحتلها. أسقطت بصرها على السقف تارة والأرض تارة أخرى كمن تحمل هموم الدنيا على أعتاقها حتى تهدل كتفاها الرقيقين.

مصمصت شفتيها وكلماتها تثير حنقها فما بالكم بردة فعله هو. انقبضت أصابع كل كف على بعضها تكاد تصيح وآلاف الحروف تتضافر محل ما تفوهت به فتعطي نتائج أفضل.

أنغضت رأسها واليوم تكرر ما حدث منذ سنوات طويلة. حالها مشابه عندما تواقحت معه بالمدرسة فتعض أناملها ندما بعدها. نهضت سريعا تلصق أنها على حق برأسها وانصرفت عن غرفتها لتناول غدائها.

استلقت أعلى فراشها مستسلمة. الهيام غزا قسماتها. أنفاس هادئة تحوم حولها تتذكر كل ما مرت به اليوم بداية من حزنها وانتفاخ عينيها نحيبا لتختم بقفزها بهجة وبشرا.

لا تصدق أنه اعتذر وتنازل عن كبريائه لأجلها ضاربا عجرفته عرض الحائط أمام شجنها. دقات قلبها تعلو تكاد تسمع أكثر من ضحكاتها الجنونية والفرحة تملكت وجدانها وعقلها وقلبها. تجزم اليوم أجمل ما مرت به ولن يتكرر مرة أخرى. جعلته يعتذر منها بلا جهد وستسافر حيثما حلمت دوما. ستسير على الشاطئ متهادية وقطرات المياه الفارة من الأمواج الجلية تقابل وجهها الناعم فتزيده انتعاشا وبهجة وإشراقا. همهمة هائمة تلقفتها شفتاها حينما أعادت مشهد اعتذاره وأنوثتها تفتخر بما حققته من إنجاز تقسم لم يصل إليه أحد غيرها.

شهقت وقد انتهى وقت راحتها لتضبط ملابسها وحجابها تستحضر صوتها. هبطت لأسفل لتتناول الطعام.

وصلت إليهم فابتسمت بلطف تبدلت بالحماسة ما إن بادلها في اتساع. قبعت خجلة من نظراته المستقرة عليها.

أساغوا الطعام في حضرة سكون الألسن وأحاديث الأعين حتى قالت "أمينة":

- بني! ابحث عن رسام ماهر. طالما لا نحمل صورا لأخيك فلنخلق صورة بأنفسنا.

ران الصمت عليهم حتى أصوات المعالق سكنت. دمع لتذكره شقيقه فأومأ تاركا طعامه متجها لغرفة مكتبه.

تطلعت "أمينة" لأثره حزينة لتذكيرها له بشقيقه. لكن طال عليها الفراق وتموت شوقا لملامسة وجه ابنها حتى ولو صورته. أقلها يبقى تحت مرأى منها علها تشعر بالدفء والأمان من رسمته.

عضت "فريال" شفتها السفلى ألما تضم يد والدتها بخاصتها مبتسمة في غمة تدعمها بينما "زهرة" المتعجبة حاولت حبس فضولها لكنه تغلب عليها. تطلعت "أمينة" لها شاردة ثوان. تنهدت ملبية سؤالها فعلمت عمن يتحدثون. أدركت غياب شقيق له مدعوا "قاسم" منذ صغره ولم يجدوه بعد رغم نفوذهم لكن لم يصلوا لشيء يخصه.

انهال عليها الحزن كسوط قاس تستشعر الاختناق بنبرة السيدة. تقص عليها لحظات سرقها الزمن منها كانت جوار ابنها وفرحتها الأولى. لاعبته وهدهدته فكبر وتقصّاها حاملا قطعة من قلبها تاركا إياها ناقصة لحين عودته كبدر يترقب نصفه المسلوب ليكتمل ويشع نورا.

لم تعلم كيف تدعمها وقد تأثرت بما أخبرتها فهونت عليها بكلمات بسيطة لا يأزف ولو جرح صغير من جروحها الغائرة بها.

أخفى وجهه بكفيه مختنقا. بالكاد منع حاله من النحيب وبعض الليالي يتذكرها مع شقيقه ولهوه معه بفترة حياة والديهما. غمره الانثمام ورغم ما حقق لم يستطع الوصول للهدف الأسمى ألا وهو لقياه.

تحرّى عنه بكل مكان وكلف الكثير لكن فشل فشلا ذريعا. حمله اليأس فألقى حموله على الله. لا يملك سوى الدعاء كوالدته ان يقع بطريقهم يوما فيجتمع شمل عائلته.

انتفض عن مقعده يستشعر المقبض يتحرك بعد طرقات خافتة. أولى الطارق ظهره وكفكف دموع فرت من أسر عينيه آذنا الدخول.

تقدمت وهي حزينة على حاله مطرقة الرأس. لا ترد رؤيته هكذا خاصة عقب أن لمحت اهتزاز كتفيه قليلا يؤكد لها بكاء صاحبه.

اصطنع الابتسام رافضا تعرية حاله فيلمع عجزه أمام أحد خاصة هي!

لم ترد إحراجه فبادلته بسمة وديعة وجلست على الأريكة قباله بعدما أذنت منه بنظراتها الطالبة فأشار لها. شرعت في تنظيم الأوراق تقمعه داخل فجوة العمل تنتشله من فجوة الهم وقد أتقنت دورها خير اتقان. ما مرت دقائق بسيطة إلا واندمج معها بمناقشات عما هو قادم وعن صفقة الغد التي يجب إتمامها تعويضا لما فقده أمس.

أنهيا العمل بعد ساعات لتتثاءب متعبة فابتسم بحنان قائلا:

- أخيرا انتهينا. اخلدي للنوم وارتاحي فالغد حافل.

أومأت بعيون ناعسة أوقعته داخلها تطبق عليه بجفنيها. رموشها الطويلة قضبان تمنعه من الخروج وما أحب لقلبه من القيود قيودها.

خطت ببطء للخارج وهو يستند على كفه ساهما. اعتدل سريعا بعدما التفتت له فجأة تفرك كفيها متوترة لكن نظراته الحانية شجعتها على الحديث:

- أردت زيارة جارتي قبل السفر إنها بمثابة جدتي.. هل توافق؟

لا يعلم لم تخيلها قطة بيضاء لطيفة تجذب الانتباه. نهض مرتبكا عن مجلسه وارتضى طلبها متعثرا. التقط ضحكتها الخافتة فحرر نفسا قيده لمدة ليست بالقصيرة يطالع أثرها بعدما رحلت شاكرة إياه.

باتت خطرا عليه!

ألقى كوب المياه المراد تناولها تهوي أرضا مجلجلة كصوتها الصاخب الملازم ذهنه. تواقحت معه ثانية لكن الحق عليه. قلل من ذاته حينما أعطاها حجما أكبر مما تملك ليهتم بها أكثر عن غيرها.

افترش "عصام" عنيفا السرير. الأرض تميد به والكون يطوف حوله. حاجباه تقابلا وغضف وجهه كالسماء ليلا. جبينه متعرج وجهه اشتد بفعل فكه الذي يكاد يتهشم لشدة ضغطه.

قبض على يده حتى غرست أظافره بجلده لكن كلماتها الجلادة تكفي أن تشغله بمداواة جرحها أولا.

وقف معنفا حاله لإصراره التفكير بها فقد انتهى الأمر وأنهت أي رابط لم يخلق بعد بينهما. سيكون محاضرا ومعلما جيدا وما هي إلا راغبة بقدراته فقط. هو يلقن وهي تستقبل بلا تجاوزات أو أحاديث جانبية.

أقنع حاله أن الوضع انتهى على قراره لكن بأعماقه يدرك أنها ليست إلا البداية لشيء أعظم يجهل ماهيته.

بزغت الشمس تسقط نورها على الواقف عاقد اليدين أمام مشهد جعله يبتسم في حنو وهيام. تحتضن العجوز دامعتين والحب يغلفهما يدفئه ويرغم البسمة بالظهور علنا.

همهم للعجوز المبتسمة فتظهر تجعيدات عريضة على وجهها تشير بيدها للداخل. تردد بالبداية لكن نظرة الزهرة المشجعة وابتسامتها المتحمسة جعلته يرضخ رافضا تثبيطها.

عيناه تراقب إشراقة وجهها وسرعة حديثها مع العجوز المنصتة في بهجة تقص كل منهما على الأخرى ما حدث بأيام الفراق بينهما. نهضت "زهرة" ترمقه بابتسامة ممتنة متجهة للمطبخ تعد مشروب بعدما عاتبتها العجوز بضربة خفيفة على كتفها فقد غفلتا عن الضيف الأبله بنظراته جالسا معهما لكن وحيدا منزويا.

كان يتبعها بمقلتيه يستشف موعد عودتها ليرتج قليلا إزاء صوتها المفاجئ:

- ما بال نظراتك يا رجل؟!

حمحم حرجا وطالع العجوز تارة والأرض تارة محركا كتفيه كردة فعل تلقائية وابتسامة مهتزة على شفتيه. احمر وجهه خجلا لفضح أمره.

ضاقت عيناها بعدما لمحت نظراته للصغيرة ولمعة عينيه تكشفه. يكاد يكون محبا!

ابتسم جانب فمها في خبث لمّا جفل من كلماتها وحياؤه باد عليه. تيقنت مما يدور بخلدها مفضلة الصمت كي لا تثير حرجه. إن كان هناك رباط بينهما فتعلم أن صغيرتها لن تخفي الأمر عنها.

قدّمت "زهرة" القهوة فالتقط فنجانه دون مطالعتها. مازالت الرجفة تلازمه فتعجيت منه. قصدت العجوز التي احتست العصير بدلا من القهوة متذمرة بأمر منها سرعان ما شقت البسمة دربها لوجهها المجعد و"زهرة" تراضيها مقبلة وجنتها تطرب آذانها بكلمات حب وخوف على سلامتها.

ظل يراقب الأوضاع صامتا وكلمات العجوز تثور بخلده ينتابه الشك حول تغيرات أحواله ونظراته الغريبة. استحضر صفو البال من أي أفكار جديدة قد تقوده لما يخافه. لم يفق سوى وهو بسيارته يقودها نحو عروس البحر المتوسط وجواره المكللة بتاج السعادة تمطره شكرا وعرفانا بسماحه رؤية محبوبتها وهو يقابلها صامتا مبتسما.

ابتلع غصته مفكرا بكلماتها جيدا قلبه يقرع طبولا. يخشى الرفض فيضيّع فرصة قد لا تعود مرة أخرى ويخاف الموافقة فيقع بالتهلكة. اهدأ وتلقف أنفاسك المسلوبة فقد طمأنتك. كلٌ سيسير كما خطط له بلا اقتراف ولو خطأ واحد.

هز رأسه وتنفس الصعداء. اتسع ثغره المرتعش لتتضافر شجاعته وانصرف عن مجلسه معدلا ملابسه. قرر خوض المعركة التي أوقع حاله بها ولن يتراجع عنها سوى منتصرا.

يتحركان في عملية ورجال ضخام الهيئة يرشدونهم لمقهى حيث ينتظرهم العميل بعدما ارتاح كل لفترة وجيزة داخل غرفتهما بالفندق قبل أن يشرعوا بالعمل. أبطأ سيره قليلا حتى أصبحت تجاوره بالسير. بدأ الخطو متطلعا للأرض في تركيز تحديدا صوب قدميها. دقق النظر بهما كي ينسجم مع خطواتها ويتزامن في السير معها! تعلو قسماته الاستمتاع حتى أدرك بلاهته. رفع رأسه بنظرة مستقيمة أمامه مبتسما في حياء لفعلته وقد أبي بقائها خلفه مع الرجال ذوي الملابس الأنيقة المرحبين به فجاورته

تسير جسدا بينما روحها مع رائحة البحر المنعشة ونسيمها العليل يضرب وجهها بصفعات حانية كأوراق شجر مبللة تداعب بشرتها.

أطبقت جفنيها هائمة تستنشق أكبر قدر من الهواء الرطب العذب تحمله معها داخل رئتيها مغلقة أسوار قلبها تحيل دون تقصّيه. لم تسلم عيناها من تأثير البحر وأمواجه العالية فأشاحت وجهها بعيدا حيث المياه الزرقاء قبالتها سعيدة عاقدة العزم على زيارة الشاطئ بعد انتهاء عملهما. وعلى ذكره أفاقت لمّا بلغوا المقهى فدلفت وبصرها حاد عن المياه رغما عنها. أجّت عيناها عندما اتجه الرجال لطاولة يكشف البحر أمامه.

ابتسم بعمليه يحيي العميل جالسا على مقعده بينما ظل العميل "حسن" يطالع الواقفة صامتة ونظرها على البحر. ابتسم بإعجاب وهمس بما أدركاه:

- سبحان من خلق عينيك العاكسة أمواج البحر الهائجة.

احمرت خجلا لكلماته وابتسمت في مجاملة. ارتبكت خاصة بعدما مد يده يسلم عليها فزادت حرجا من إخباره أنها لا تصافح الرجال. بادلته التصافح في تردد وشاركتهم الجلوس مطرقة الرأس. لم تنتبه للذي يكاد يلصق أسنانه كاملة غي مكمنها لفرط الكز عليها. أنفاسها تغمد قلبه ببركان مضرم. عيناه تطلق رصاصات صوب "حسن" المطالع أوراق الصفقة أمامه معقود الحاجبين بتفكير ك"مهران". لكن تجعد جبينه ما هو إلا ضيقا وغضبا يكاد يفتك بالأخضر واليابس. زحزح نظراته عنه مصوبا إياها تجاهها كمن يتوعد لها.

التقطت نظرته المريبة فازدردت ريقها متسائلة عن سبب غضبه وتحول مزاجه بعدما كان مبتسما طوال الطريق حتى أنه ألقى عليها بعض الدعابات يلطف الجو المشحون بالأعمال ولم ينتهي مزاحه إلا بتركها في غرفتها الفندقية متجها لخاصته المقابلة لها وابتسامة لطيفة لا تفارقه.

والآن انقلب حاله مائة وثمانين درجة ترى الشياطين تلهو حوله فرحة بإثارة حفيظته التي لا تملك إجابة لعلتها. ألصقت عينيها بالطاولة والصمت حل متلاشية إياه لالتهاب عينيه كشفق سلب حمرته من دماء الشمس النازفة.

تعجبت من زمجرته قبل أن يبتدئ الحديث. غلبه الضيق واختصار الكلمات. عقب تدربه أمس على الشرح والحديث الشاف لتوضيح الأمور طوي أوراق حديثه ملقيا إياها خلف ظهره مكتفيا بأمره أن يطالع الأوراق أمامه قبل توقيع العقود. زفر في ضيق لمّا سأل "حسن" عن شرط فتحدثت الزهرة بصوتها الناعم تبسّط كل شيء غافلة عن انقباض فكه ككفيه وعروقه بارزة. باح بما صاح به قلبه:

- فقط اخرسي!

ارتجفت فرائصها إثر صيحته الآمرة الوقحة تستشعر مدى الإهانة. مقلتاها المترقرقة بالدموع تنظر إليه ذاهلة فتعود لمن حولها يطالعوها البعض بشفقة والبعض في تعجب من صراخه. بللت شفتيها وقلبها يرتجف كسائر جسدها الموشك الانفجار بكاءا. لم تطق البقاء فنهضت سريعا خادنتها العبرات. تقصّت المقهى ومُطت شفتاها فحاولت تقييدها لكن فشل ذريع طوّقها. دأب نحيبها حزينة من إهانته مرة أخرى لكن تلك المرة على الملأ. دعس كرامتها بقدميه غير عابئ بمشاعرها. توقف مسيرها وتطلعت حولها ناسية مكان الفندق حيث إقامتها. التفت صوب المقهى باكية. كفكفت دموعها وصدرها في علو وهبوط لشهقاتها. طالعت البحر أمامها وخطت ناحيته بقلبها المكدوم عل المياه تلصق شتاتها جراء يديه الغليظة.

ممددة أعلى فراشها في نعاس لكن لا جدوى من محاولة السبات. نهضت معتدلة تدلك رقبتها لطول التوائها على وسادتها في صوت متكاسل كتنهيدة طويلة مبعثرة. همهمت متعجبة لصياح والدتها باسمها فهرولت خارج غرفتها وجلة من إصابتها مكروه. أكلت الدرج تكاد تنزلق لشدة لهفتها حتى توقفت قبالة والدتها المتطلعة أمامها متسعة العينان. حاوطت وجنتيها متسائلة وكفاها يجولان على كتفيها فرأسها تتأكد سلامتها. خرجت "أمينة" عن صمتها متحدثة بأنفاس مسلوبة:

- "فريال".

همهمت ابنتها في لهفة منتظرة استكمال حديثها فلم يأتها سوى يد والدتها المرتعشة ترتفع في الهواء مشيرة لشخص لم تره ابنتها لفرط الفزع على والدتها التي همست بتقطع:

- إنه شقيقك.. "قاسم"؟!

توقفت عن الحركة وران الصمت عليهما سوى من أنفاس هائجة تتراقص داخل القصر و"فريال" حالها لا يوصف بكلمة. ذهنها يدور غير مصدقة أن والدتها تقصد شقيقها المفقود. بالتأكيد تعني الحاضر ولكن لسانها تعثر في نطق اسمه. أخذت نفسا طويلا ونهضت مرتجفة الأطراف كمن تخشى الالتفات لتستجمع شتات قوتها. شهقة عنيفة تكاد تتحول لصرخة صدرت. سترت ثغرها المنفرج تطالعه ذاهلة وتنظر خلفه علها تجد ما تقوله والدتها. لم تجد سواه أمامها فجحظت عيناها عما دار بخلدها.

كان يقف مبتسما طوال الوقت متصنع الحنان. زال إزاء رؤيتها تهبط الدرج في لهفة تسأل والدتها عن حالها لتحتل الصدمة تباشيره. انفرجت شفتاه والعالم ينهار حوله. مقلتاه تزداد اتساعا يرهف النظر إليها كمن يحاول أن يستشف عكس ما يراه. لكن لا محالة فالحقيقة تقف أمامه. خارت قواه جوار يديه المهتزتين في ارتعاش يقابل ارتعاش الماثلة أمامه والكون سكن حولهما.

أخرج تأوه خافت مرهقا بعدما خسر صفقته لحدة حديثه الواضح مما دفع "حسن" إلى رفض التعاقد معه ضائقا من معاملته المتعجرفة تاركا إياه يسند ذراعيه على الطاولة في إعياء. الشجى غلب قسماته. لأول مرة لم يكترث بخسارته لعقد قدر حزنه لخسارة شخص.

جرحها مرة أخرى وأهانها بعدما كان على وعد ألا يتعدى على كرامتها. لم يكن منه سوى المنقيض ضاربا وعوده عرض الحائط لكن يشهد الله أنه لا يعلم كيف صرخ بها. لم يكن عقله أو لسانه ما أجبره بل تمرد صرخة عميقة تدق أسوار قلبه فانطلقت قاسية بوجهها الملائكي مسببة لتبكي مرة أخرى.

مسح وجهه متعبا غير قادر على المواجهة. ليس أمامه سوى الاعتذار منها حين عودته للفندق وطلب السماح بوعد جديد مع قواعد تضعها برغبتها خاضعا لشروطها عله يصلح ولو شطر مما كسره.

نظر لحقيبتها التي غفلت عنها فأمسكها مستعدا للنهوض يتبعها. أوقفه رنين هاتفها داخل الحقيبة. تردد ثوان وكل إنش ينهاه عما بباله لكن قلبه الأرعن قاده لاختراق خصوصيتها. فتح حقيبتها ملتقطا هاتفها فرأى صورة جارتها العجوز.

أجاب الاتصال ووضع الهاتف على أذنه يرتب كلمات داخله أن يطمئنها وقد يتحجج بذهاب صغيرتها للمرحاض. سقطت حججه الواهية أمام صوتها المهلل فرحة صارخة بالهاتف:

- "بتول" لقد عادت شقيقتك .. "بلقيس" عادت صغيرتي.

ارتعشت يده فهوى الهاتف أعلى الطاولة. كلماتها ترن داخله وذلك الاسم يجول بعقله كصاعقة تثير رجفته.

"بلقيس" اسم لن ينسه يوما. يداه ترتجفان كعجوز. فقَدَ التحكم بأطرافه أثناء التفتيش بالحقيبة في تعثر. عرّاها من جوفها وأخرج كل ما بها. تزاحمت الأنفاس خلف سياج ثغره سرعان ما انبثقت متخبطة بزميلاتها يدعو أن يبوء بحثه فشلا ويُطرد ذلك الهراء عنه. بالطبع ما هو إلا تشابه أسماء. لكن لم تذكر يوما أن لها شقيقة بل مع وقت راحة لهما حددّت أنها وحيدة بعد وفاة والديها سوى من العجوز. "بلقيس" اسم لم يلُقب به فتاة غيرها على الأقل داخل محيط حياته هو. كما أنه تقفى أثر عائلتها فلم يصل لشيئا سوى حضورهم القاهرة منذ أعوام ليست بالقليلة متقصين قريتهم النائية.. قرية؟!

رفع يده المهتزة حاملا بطاقة هوية من جيب خفيّ يخط عليها جمرات حارقة تجاور صورة من تحطم قلبه لتحطيمها منذ قليل "بتول عبد القادر الشامي"!

بعض الصدمات تستحي العلنية؛ فتتقنع بالحقائق.

إسراء عبد المنعم

"مهران"

لا أصدق ما تراه عيناي. ذهني عالق بنقطة فارغة الأحداث متضاربة. كل فكرة تلكم شريكاتها بعقلي فيكون المجني عليه جسدي المنهار قوة. لا أعلم بمن يفكر وماذا سوف يقرر.

أرهقني الكثير والحقائق تتزاحم فوق رأسي الذي مال يكاد يسقط أرضا. كذبت عليّ بكل شيء. تنكرت باسم آخر والسبب أعلمه جيدا.. الانتقام. تريد الثأر لشقيقتها التي.. عادت!

ليتني تأكدت من أوراقها المقدمة لكنت علمت أنها مزورة فما سمحت لها التوغل. تريد التِرَه بطريقتها كما ثأرت "بلقيس" بما رأته. متى سأحيا هانئا ويدعني الزمن بأحضان عائلتي الدافئة.

عائلتي!

عند تلك النقطة وانتفضت عن مجلسي ناهضا ألتقط أشياء الأفّاكة ودمعتي تكاد تهجر عيني مداعبة خدي فأتمسك بها رافضا تركها كتمسكي بالحقيبة ثم انصرفت عن المطعم.

وكأن العالم اتفق عليّ فأبَدتُ بالطريق حينما أتاني اتصال والدتي وكانت الفاجعة (عودة أخي). تمكثت بالطريق أنهج عاليا وكلمات والدتي صعقتني. أتراه عاد حقا أم أنه تهيؤ قرر قدري إلزامه بي؟! تغضن جبيني وقلبي ثائر متخف وراء ضلوعه المرتعشة كسائر جسدي. فكرة عودته تجول بخاطري ترغمني الابتسام لكن تعودت التحكم بها خيفة الجذل فتتضعضع الأحلام ولا أجد ما يراد.

تطلعت حولي أبتلع غصتي في توتر بالغ والارتباك يلحقهما التعثر. أوثقت شعري بصيحة مكتومة عاجز الجسد والروح.
جفلت لما بلغني صوتها القبيح مؤخرا يضرب ظهري طاعنا إياه ثانية.

"بتول"

تمشيت قليلا جوار الشاطئ أتمعن النظر للبحر بأمواجه الهائجة متنهدة مبتسمة في هيام لهذا المعشوق من الجميع فأغار راغبة الانفراد به وحدي. بحضرته زيلت غمتي لأتناسى همي بعدما فشلت بنسيانه وأتجاهل إهانته مع تعهد لكرامتي بوضع حدود أشد حزما بيننا والتصدي له بدلا من الهرب منتحبة وإلا لتركت حلمي بالعمل بشركته. الإهانة لا تغتفر والكرامة لا تعوض.

تنهدت والضيق يتملكني بعدما استشعرت بعض النظرات تجاهي فالتفت للحشد الجالس على الشاطئ لا يسلم منهم عابرا يرمقونه بتفحص وهمهمات تكاد تسمع. عقدت حاجبيّ وخصوصيتي تنتهك أمامي بلا خجل.

أبصرته يقف بعيدا ساهما باللا شيء. تدانيت مرغمة وقسمات وجهي متعكرة منقلبة أتمنى ألا يذهب قبل اقترابي فيزيد جرحى حرجا.

تنهدت مبتسمة وقد صرت خلفه تماما فأزلت بسمتي راسمة الجمود. بصوت بارد طالبته العودة للفندق فجاءني الزمهرير بنبرته وهو يخبرني قرار عودتنا للقاهرة!

همهمت متعجبة لا أفهم شيئا. لم نصل سوى منذ ما يقارب ساعتين فقط ليقرر الرحيل مخالفا كلماته السابقة بالبقاء بضعة أيام!

وكأن الرياح العاتية نقلت ضيقي وغضبي إليه فهدأت أعصابي عنوة تحت سطوة وجهه المكدر واخترت الصمت ملاذا من نيرانه كأنه ينتظر من يأكله تاركا بقاياه تسقط رمادا.

"عصام"

شُل جسدي وتوقفت حواسي أراها أمامي والعجوز تلقبها ب"ابنتي". كانت ضربة أصابتني بمقتل. تسمرت محلي أزدرد ريقي غير عابئ بالاتفاق ناسيا إياه. لا أرى سواها قبالتي والصدمة تلقتها هي الأخرى عيناها تتساءل.. كيف لي أن أكون شقيقها؟!

يا الله!

أيقنت هلاكي فهي تعلمني منذ أن كنت شابا مراهقا. تعلم ماضي وسأُكشف لا محالة.

لعنت الاتفاق ومن اتفقت معها. ظننا أن الكذبة ستخيل على من أزعم نسبي إليهم لأصدم بمن لم أتوقعها. انتقاها القدر سيفا يطعن قلبي سابقا وحبلا يلف حول رقبتي حاليا.

أناس بثرائهم لن يتركوني وشأني حينما كشف أمري.

أفقت عليها تتوارى وراء غرفة مجاورة ووالدتها أفدت في عويل وتفحص. سببت تهوري والندم يغلفني بعدما تلاعبت بمشاعر أم فقدت ولدها!

"فريال"

لا حراك ولا ردة فعل سوى الصمت الذي ران على رؤوسنا غطاءا يسترنا عن حديث الأفواه. تجولت بينه وبين والدتي التي جنّت بالتأكيد! كيف لها أن تظنه أخي؟! فارق شاسع بينهما؟!

دوما ما يربكنا الفراق فنتعلق بما يخيل لنا بقرب اللقاء حتى لو كان هراء.

ابتلعت غصتي وهويت داخل دوامات بلا منقذ.

أسئلة تجيء وتذهب والإجابات تشاهدني ضاحكة هازئة!

لِمَ يزعم أخوّته وأنا على دراية بالقليل الحاسم أنه غريب عنّا؟! ما هدفه من افتراء حُكم عليه بالفشل؟!

قبضت على يدي أستمع لنحيب والدتي الغائبة عن الإدراك. حنينها لولدها جعلها تتمسك بقشة كاذبة. وعيها الفقيد هيأ لها صحتها ليريح قلبها.

رأيتها تحرك مقعدها صوب المذهول قبالها متسمر وكلماتها الحانية تلقى عليه في خَرَف. هرولت مهاتفة شقيقي كي لا يأمل خيرا بعدما أخبرته والدتي وسط صدمتنا عن عودة "قاسم".

بغرفة مظلمة فقدت نورها ودفئها يقف جسد هزيل بكرة شعر مجعدة فوق رأس صاحبتها التي تنظر من النافذة. الأشعة تضرب جبينها وخديها فتزداد احمرارا بابتسامتها المختلة. لا تشعر بما حولها. تدندن كلمات قصيرة هادئة حتى سكنت وابتسامتها تزول رويدا متخفية وراء دُجْنة عينيها تحاكي ظلام الغرفة الدامس هامسة في عته:

- الثأر بالمثل.

يقود سيارته والهواء يصفع وجهيهما خاصة هي المتضاربة في جلستها. جفلت حينما أبصرته يطالعها بالمرآة ونظراته مجهولة لا تعلم خفاياها. أجّ وجلها متعجبة ما اقترفت ليرميها بنظرات مبهمة مريعة.

جفلت لمّا مد يده بحقيبتها فوق قدميه التي لم تنتبه إليها لفرط الجبانة. التقطتها بارتعاش مقلتاها تهتز بينه وبين كفيها المتعرقين. رأفت بجسدها فأبت الالتفات إليه كي لا يتفاقم توجسها.

قطع تفكيرهما رنين هاتفه فتلهف الرد بحال لم تره يوما. أجاب متغضن الجبين ينصت صامتا. لم يتم الدقيقة إلا وانبسطت قسماته من انقباضها. باتت تباشيره كالديجور!

أغلق هاتفه في جمود. لمحت اتساع ثغره بابتسامة مريبة فطوّقت حقيبتها كجنين يتحامى داخل بطن والدته حيث الدعة.

- أخي! لا تصدق والدتي.. لفرط شوقها تتوهم أنه "قاسم". لكن ما هو إلا كاذب صدقني. سأخبرك كل شيء عند حضورك لكن ثق أنه ليس ب"قاسم".

ألقتها على مسامع أخيها فأغلق هاتفه دون رد. ازدردت غصتها مدركة الردى الوافد وقد بدأت أولى عروضه!

صياح والدتها باسم شقيقها شق الأرجاء فهرعت إلى الصالة في لهفة. رأت والدتها تزحف أرضا تاركة مقعدها محاولة إدراك الباب حيث طيف المخادع مضى للخارج بعدما دفع الحارس الذي حضر الآن من غيابه. انطلقت صوب والدتها تبذل قصارى جهدها في تعديلها. صاحت في انهيار ونحيب لمّا أخفقت:

- اهدأي.. ليس هو.. ليس هو.

سرعان ما خفت الصراخ. ضمّت والدتها في عنف فامتزجت دموعهما وانسدل ستار الحزن عليهما.

تقف أمام النافذة تجاورها آلامها لتتخلص من المسببين واحدا تلو الآخر. أغمضت عينيها تعتصرهما خلف أهدابها الطويلة وحالها الآن مشابه لوقت زواجها. كانت تقف هكذا لكن حينها أحكمت الأبواب والنوافذ غلقا. كانت نجْدتها على يد فتحات صغيرة ينفذ خلالها بصيص ضوء وشعاع نور يصبرها ما ابتليت به.

الآن تقف وكل ما أوصد فتح ليداعبها الهواء وبيدها الحيلة والحرية أن تختار ما تريد وتنفذ ما ترغب.

فتحت عينيها المترقرقة تطالع الخضرة أمامها وأشجار طويلة تكاد تميل على وجهها تزيل وريقاتها دموعها المتلألئة تحت أشعة شملت كامل جسدها تضيء الديجور لكن لا محالة زوالها.

استعادت الماضي كليا. ذكريات موجعة بداية من زواجها قسرا من الفرعون لتتجرع على يده كؤوسا إهانة وعذاب. خلّصت الجميع من ذله لتذل هي بقيود جديدة والحقير "مهران" قد تخلى عنها.

ابتسمت في شر تتذكر كل لحظة مرت داخل السجن لسنوات عديدة. تحررت منذ سنة واحدة كانت بداية تخطيطاتها. إن تساءلتم عمرها لأخبرتكم أربعة عشر عاما!

نعم أربعة عشر من الأعوام عاشتها في هناء والبقية من السنين لا تستحق لقب عمرا فوق عمرها.

الآن عادت بقوتها لتهيمن على كل من ظلمها. ومن تبقى من الظالمين سواه هو؟! من تخلى عنها بعدما قادها للهلاك. تركها تلاقي السجن وحيدة مقيدة خلف قضبانه.

عادت ولن تذهب سوى ووجدانها مرتاح. مخططاتها تسير كما يرام ويراد!

ضحكات جنونيه لم تنفك حتى حل محلها بكاء هستيري وسنوات عذاب تلح الوصول إليها فترهقها.

تذكرت جيدا بعد قضاء بضع سنوات بالسجن جسد بلا روح لترى والديها وشقيقتها أمامها. خرت أرضا في ضعف لا تعلم أتسعد لحياتهم أم تغضب لكذبه أم تتحسر على شبابها.

يا ليتهم لم يظهروا فما مرت سنة حتى لاقى والداها المنية لحسرتيهما على ابنتهما التي قررا السؤال عنها بعد أعوام من هروبهما لتكون الفاجعة انتشار خبر قتلها الفرعون وحبسها.

لم يتبقَ بتلك الحياة القاسية سواها وأختها الصغيرة "بتول" الملتحقة بمدرسة بمدينة انتقلوا إليها بعدما وجد والدها عمل يغطي تكاليف الحياة وعم بعض الخير عليهم. تقاسموا الحياة بينهم غافلين عن قطعة لحم متعفنة حُجزت خلف قضبان بسبب ضعفهم وذلك ما لن تنساه يوما.

تتذكر بكاء شقيقتها تخبرها موت والديها فدمعت عيناها.. فقط!

وكأن الهموم أشغلت قلبها عن الحزن حتى لوفاة والديها الذين طال فراقهما فاكتفت بدمعتين والترحم عليهما!

اكتفت بالصمت طوال السنوات. أطلق سراحها العام الماضي والتي لكانت منذ أعوام لو ظل الحقير جوارها. ما كان محالا إثبات براءتها إن علم القاضي ما فعله الفرعون القاسي. لكن ابن شقيقه كان أعتى. لاذ بالفرار تاركا روحا تحطمت لأجل سعادتهم غير عابئ بها. ومتى كانت عبئا على غيرها؟!

انصرفت عن حبسها منذ عام. وصلت للمنزل حيث سكنته شقيقتها ذات الجسد الجميل والوجه الندي المنافي خاصتها وسط والديها. أثيرت غيرة حرمانها من ذاك النعيم بينهم.

تعرفت على العجوز المدعوة "سناء" والتي كانت على علم بالقليل جدا مما حدث مع الفتاتين ووالديهما بحكم الجيرة. ساندتهما وقدمت الطعام إليهما بوقت الضيق وقلة المؤونة.. وبدأت مهمتها.

أخبرت شقيقتها كل شيء منذ بداية الوصب انتهاءا بالردى! أعلمتها ما فعله "مهران" المنافي للنخوة تبث داخلها حقدا تجاهه.

انتاغت متذكرة وجه شقيقتها الغير مقتنع تخبرها أن تمنحه عذرا لتركها. لكن كلماتها السامة أصابت كل قناعاتها فأصبحت عروسا تحت سطوتها.

دست شقيقتها داخل منزله وشركته فكانت بداية انتقامها لمّا فقد صفقة بعدما سربت معلوماتها لشركة منافسة فزادت شروطها بهاءا حتى تلقت الاتفاق وخسر "مهران" بأولى حروب الثأر!

لن يهدأ بالها إلا وإثارة جنونه بتلْب في عمله وأحبته.

لا خير من ضربة قادمة إلا في شقيقته ووالدته.

علت ضحكاتها الجنونية والإعجاب بدا على وجهها. طاف ذهنها بعيدا منذ شهور قليلة عندما استقلت بحياتها جالسة مع ذاك الغريب!

عملت بعدة وظائف بسيطة وفرت خلالها المال القليل. ذكريات والديها بالمنزل يثير غيرتها وحقدها. عزمت الابتعاد حتى تصلح حالهت. علمت أن اللغة الإنجليزية تعني حياة جديدة ومستوى أعلى فقررت تلقنها من خلال تدريبات مكثفة بأموال عملها المدخرة.

حضرت تدريباتها بانتظام ليأتي يوم حظها. أبصرت شقيقته تدلف الغرفة مطابقة للصور التي بعثتها شقيقتها لكامل عائلته فتنفست في جنون منتظرة انتقام مضاعف!

تنهيدة عميقة صدرت متعجبة القدر الذي جمعهما ولسخريته كان معهما أستاذها!

لم تخرج بعد انتهاء الحصة بل مكثت على قرب منهما تستمع إليهما في حيرة وجهل انقلب لإدراك وخبث. اتسعت عيناها ما إن علمت أن مدربها هو أستاذ "فريال" الذي من كلماتها بالماضي تقسم إعجابه بها.

ثم كانت حركتها التالية انتهاز وجوده ضدها. ضربت عصفورين بحجر خُط عليه نيران ألمها بعدما ترصدته فعلمت أنه يتكفل بمصاريف طفل يتيم بملجأ.. مريض.

علمت أن "عصام" يبحث جاهدا عن عمل إضافي يوفر أموال لأجل عملية ضرورية للصغير. ظلت ليومين تفكر كيفية استغلاله حتى بلغت مرادها.

جمعت أموالا من عملها إضافة أنها باعت الكثير من أساس منزل والديها وحُلي شقيقتها بحجة مستلزمات لبيتها الخاص بها فتركز معها مبلغا لا بأس به.

ذهبت له ونفذت تخطيطها. سوف تعطه أموال العملية مقابل أن يتنكر بشخص ليوم واحد فقط. استطاعت إقناعه أن ذلك الشخص توفي في صغره لكن الشبه بينهما كبير بالقدر الكافي لتصديق العائلة له. لم تعلمه سبب مبتغاها وقد اطمأن بطول حديثها تقنعه مدى أمان الخدعة وحبكتها. لمّا يشتد الضغط يتنحى العقل.

الغبي لم يأخذ يوما معها سوى ووافق. أحكمت خطتها الواهية فأعطته نصف المبلغ قبل تنكره والنصف الآخر بعد تمام اليوم.

تعلم جيدا أنه سيكشف لا محالة فشقيقهم تركهم بشبابه بعدما ثبتت ملامحه المحفوظة عن ظهر قلب. لكن ما تريده هو إثارة الحزن والهرج داخل منزله مدركة تذكيرهم بشقيقهم الراحل سيخيم الشجن عليهم والخوف للسبب وراء خداعهم.

أما شقيقته.. فلا أشد صدمة وانكسار من خداع عزيز علينا لنا!

سيعلمون مباشرة أنه مفترٍ وهنا تنشأ الفتنة بينهم. "مهران" يلقنه درسا لن ينسه طالبا منه اعترافا وسيفعل. من مثله لن يستطع الإخفاء وذلك يروقها. أن يعلم عودتها فتزيده هلعا من انتقامها. لن يستطع الوصول إليها وهنا يأتي دور شقيقته الخائفة أن يؤذي أستاذها فتشغل "مهران" عنها. حتى وإن وجدها فليس بيده سوى الصراخ وسبها دون المس بمخططاتها!

جفلت من أفكارها إزاء صوت العجوز التي لم تكف عن التهليل لعودتها بعد غياب شهور قليلة عنها. فترة بسمة "بلقيس" و"سناء" تقودها للصالة حيث طعام وفير أعدته سريعا لأجلها تطالبها إخبارها ما فعلت بغيابها. باءت محاولات إيجاد الإجابة فشلا فآثرت الصمت كي لا تزعجها.

ألقى جسده على الأريكة وصدره اهتاج مع أنفاسه المتسارعة. الهموم طاردته فتمكنت منه. اسود وجهه ندما من فعلته. أين كان عقله عندما وافق؟! تنهد متعبا من القادم يبتلع غصته خشية.

تأوه "عصام" والكلل يتملكه فنهض عن مجلسه. هام بغرفته بعدما فر من القصر ما إن اختفت "فريال" بالداخل متيقنا مهاتفتها لأحد قد يوصله إلى الرمق الأخير.

غامت عيناه حزنا عندما التقط المال أعلى الطاولة والذي كان سيحصل على مثله بعد إتمام المهمة فيغطى تكاليف العملية الجراحية خاصة "محمد" الطفل المسكين ذو أمراض قلبية تقسو عليه كما قسي يتمه سابقا.

صاح في صخب وأفكاره تلوح أمامه غاضبا لفشل مهمته ولا يعلم السبب. أهو أم هي؟!

بالتأكيد تلك المدعوة "بلقيس" تحمل أسرارا بجعبتها . لِم عائلة من تشغل باله بذاتها المقرر خداعها؟!

ضيّق عيناه في حيرة وتساؤل عن فعلتها؟

أيعقل علم تلك البلقيس بمعرفة "فريال" له وكان هدفها أكبر من انتحال شخصية؟!

اعتصر عينيه وإصبعي يده تضغط أعلى أنفه. الدوار يؤلمه كما يفعل قلبه.

هرع صوب منزله ما إن ران إليه صراخ والدته والحارس يقف متعجبا بالخارج. خلفه "بتول" الزهرة المخادعة تجهل ما يجري. جارت هرولته علها تفهم ما يحدث حولها!

دفع الباب بخطوات راكضة فقابلته والدته الجاثمة أرضا وشقيقته تحتضنها تشاركها النحيب.

قست نظراته وجثا أمامهما فانتبهتا له. طالعته والدته في شجن وارتعاش هامسة:

- اشتقت إليه.

دمعت عيناه ودفع رأسها بأحضانه يربت عليها. تنفس عميقا فقالت "فريال" بارتجاف وعويل:

- ليس هو أمي.. ليس هو.

بللت "أمينة" ثغرها ووجهها أحمر مختنق. انكمشت ملامحه حينما صاحت بحرقة قلب لم ولن تخمد نيرانه:

- أعلم.. أعلم.. لكن قلبي الملتاع يتعلق بأي قشة حتى لو كاذبة.. أخاف الموت قبل أن ألقاه وأخاف أكثر أن أحيا للحظة أسمع خبر منيته بأذني.

دست رأسها بصدر ابنها الصلب الذي زاد التصاقه بها وبكي مثليهما. اندفعت "فريال" تشاركهما الاحتضان الحارق كل داخل دوامته الخاصة بينما غرق هو بدوامات عديدة: حسرة ، اشتياق ، غضب ، تنتهى بدوامة الترقب لمعرفة كل شيء من شقيقته.
سوف يلقى من سبب انهيار أسرته حتفه. تشنج متذكرا شقيقه تراوده ذات أفكار والدته. اشتياقها أفقدها بصيرتها. لا تعي الحق من الباطل.

تطلعت "بتول" لهم متغضنة الجبين في حيرة من أمرهم وما خيم عليهم من شجن. لسانها معقود جراء عقلها الرافض التدخل. قلبها مكدوم لحزنهم فمهما فعلت ومهما نفذت من أوامر شقيقتها تبقى غير راضية عن أفعالها. تدعو انتهاء مهمتها وارتياح قلب أختها كي تكف عن دسائسها.

نعم مهتاجة من فعلته وتخليه عن "بلقيس" لكن ستظل غير مقتنعة بذلك التخلي. فما قصته "بلقيس" يجزم وجود جزء خفي خاصة أنه دعمها حينما أُلقي القبض عليها فلِم تغير الحال على حين غرة مقررا تركها وحيدة؟!

تقسم وجود ما يخلّ بالقصة. ليت السيدة "أمينة" قصت عليها ما يتعلق بشقيقتها عندما سألتها عن ابنها "قاسم". لكانت علمت الحقيقة كاملة.

كادت تدمع بحضرة نحيبهم فحالت دون بالبكاء. قلبها الهزيل ازداد ضعفا. عزيمتها أن تصبر وتستتمّ ثأر شقيقتها يتزعزع خاصة بعدما ألفت الحب بينهم ومدى تدينهم الذي يحيد عن إغضاب ربهم.

جفلت ورنين هاتفها يعلو. ازدردت المتبقي من غصتها معدلة صوتها حتى لا تشك العجوز بها. أجابت بصوت خافت وكانت المفاجأة.. حضور شقيقتها.

استمعت لصوت جارتها المهلل بمجيء "بلقيس" إلى المنزل وأن تعود سريعا للقائها.

الصدمة سمرتها محلها فغفلت عن كلمات "سناء" أنها هاتفتها منذ سويعات قليلة ليقابلها الصمت ثم الإغلاق. تفكيرها منحسر على عودة من كان التواصل معها هاتفيا فقط!

منذ بداية الرنين ومعدل تفكيره بأوج علوه يربط الأحداث سريعا. بلغ اليقين أن الكاذب ما هو إلا تابع للعبة المتداولة حوله والقائد "بلقيس".

الآن يجزم أنها ألقته بطريقهم وسينفرد بشقيقته يعلم كل شيء بالتفصيل.

كمه وجهه رغم التعجب من تصرفاتها ومطارداتها بعدما أدى واجبه تجاهها ووكّل أشهر المحامين غير عابئ بالمال المدفوع لأجلها بل اهتم بحصولها على حقها أن تحيا لمرة سعيدة بلا ألم. يُدرك خطأه عندما لم يحفظ إرثها فهي زوجة الفرعون بينهم لكن لا أدلة لذلك لصغر سنها فلم يُسجل عقد زواجهما ولا يعلم إن سُجل أثناء تحقيقات جريمتها أم لا لكنه تجاهل الأمر البتة. إن أرادت إرثها ستطالبه قانونيا وتظهر علنا لا أن تتوارى خلف الجدران.

أنغض رأسه مع لهيب غير مبشر. استمع لطلب الماثلة خلفه أن تذهب لجدتها المتعبة الآن. أدرك كذبها هي الأخرى ورغبتها برؤية شقيقتها الثائرة.

أشاح بوجهها أن تذهب كي يتخلص منها تلك الساعات القليلة لحين يستجوب شقيقته عما حدث ويرتب أفكاره ثم يخطط للقادم.

قنطت على ردة فعله الغير مبالية. ارتحلت عن المنزل المنهمر أصحابه دموعا منصرفة لمن لا تطمئن عودتها.

للمرة الأولى ندرك ذلك المكان الموحش حد انقباض القلوب. جسد مفتول العضلات شديد الطول بحاجب أيمن متقطع وأسنان يغلبها بعض من الأصفر. وجهه مليء بالأتربة. يقف أمام من يماثله ضخامة مع فارق حسن المظهر وملابس الضباط المنمقة. ابتسم الوسيم في جاذبية يمد يده مازحا:

- أحسنت صنعا يا رجل.. الآن ملفك عاد ناصعا.. لكن إياك وتلويثها فعيناي عليك!

أنهى حديثه بتحذير يشوبه المرح. قهقه المريب في صفاء على غير عادته قائلا:

- لم أخاطر بمحوها لأعيد تلويثها!

صافحه مرة أخرى مبتسما. تنفس الرجل بعمق لأول مرة هواءا نظيفا وهجر المخفر بروح جديدة وقريبا جسد جديد خال من الأتربة الداخلية والخارجية.

وأخيرا حان اللقاء!

جفلت العجوز و"بلقيس" لصوت الباب الذي فتح عنيفا. دلفت الزهرة بأنفاس هائجة تصطنع الابتسامة في صعوبة. عيناها لا تفارق شقيقتها التي استكملت احتساءها الشاي في برود.

كزت على أسنانها وطوّقت شقيقتها ثم جذبتها صوب منزلها المجاور بعدما قبّلت "سناء" المتعجبة مما يحدث حولها.

دلفت الشابتين للمنزل فأغلقت "بتول" الباب عنيفا قائلة ببعض الحدة:

- لمَ عُدتي؟!

ارتفع حاجب بلقيس وصوت تعجبي يغلف الأجواء ضاحكة في سخرية وصدمة:

- وأنا من ظننتك ستتشبثين بي؟!

استدعت "بتول" هدوءها قاطعة المسافة بينها وبين شقيقتها. احتضنتها مربتة أعلى ظهرها هامسة في لوعة أجت بعد ندمها من تسرعها الذي أوحى بغضها لأوبتها:

- تعلمين مدى اشتياقي لكِ.

ابتسمت "بلقيس" في جلاء قليل الظهور تبادلها الاحتضان. ابتعدت متلهفة السؤال عما فعلت بأيامها وبالطبع تقصد ما يخصه هو وعائلته.

تنهدت "بتول" متجهة لأريكتها تلزمها جلوسا والحيرة بادية عليها. قصت على شقيقتها المنصتة في اهتمام ما حدث منذ عودتهما. لاحظت إشراقة وجهها رويدا رويدا.

عقدت حاجبيها متعجبة من ضحكتها العالية لتنهض متسائلة:

- ما بك؟

تمطعت "بلقيس" محلها فرحة وبدأ دورها أن تخبر الصغرى بمخططها.

جحظت عينا بتول واقتربت منها صائحة:

- أتمازحينني؟! وما ذنب شقيقته؟! كيف استغللتِ حاجة الرجل للمال؟! "بلقيس"! لا تشرق شمس إلا وتثيرين غيظي بأفعالك. اتفقنا الانتقام منه هو. فلمَ عائلته إذن؟! إنك تتلاعبين بمشاعرهم وهذا ما لن أرضى به يوما. خسارة المال تعوض لكن المشاعر لا تقبل العوض.

- فعلت ما أردت وانتهى الأمر.

ألقا "بتول" حجابها على الأريكة وأسنانها تصطك لفرط غيظها. رفعت إصبعها بوجهها محذرة وقالت:

- أقسم إن مسستِ عائلته بسوء لأتركك أنتِ وانتقامك اللعين!

طفح بها الكيل فصاحت:

- لمَ كل هذا الهجوم وهو من تخلى عني؟!

- الحياة جواره لم تزدني سوى يقينا أن القصة ناقصة! أكاد أجزم تركه لك كان غصبا. أنا من قضيت بينهم أيام قليلة واستشعرت حنانا وحبا يؤكدان شكوكي بما قصصته!

- أتكذبينني؟!

ابتلعت "بتول" غصتها في يأس تهز رأسها مستسلمة النبرة:

- افهميني "بلقيس"! قد تكون قصتك لم تكتمل. لمَ لَم تفكري يوما أنه قد أُرغم الرحيل؟

- ومن يرغمه وقد قتلت من عكّر حياتهم؟! اختار الرحيل ولم يُسيّر. اختاره كما اخترته أنتِ!

أعادت خصلة من شعرها المجعد خلف أذنها وانصرفت عن المنزل بمن تتوسطه متسمرة لآلئها تهبط حزنا وألما على شقيقتها والدوامة التي أوقعت حالها بها.

تولدت عزيمة أشد بمعرفة الحقيقة كاملة. أخفقت عندما وافقت شقيقتها بالثأر دون إرداعها أو دفعها لطريق آخر صالح يخلو من الدموع والندم!

اختلى بشقيقته ما إن نعست والدته بعد بكاء عنيف. تربع قبالتها مطالبا أدق التفاصيل لما حدث منذ قليل.

ألقت على مسامعه ما وقع. كمه وجه "مهران" كسماء غضفت وزيل سحابها المقطّر. فرغت من الحديث لمّا أعلمته كيف هرب عندما هاتفته وخرجت على صيحة والدتها.

همهم لها بقسمات مبهمة يسألها عن هويته.

توترت ملامحها وقلبها يقرع طبولا فكانت النتيجة:

- لا أعرفه شخصيا لكن.. كان معلما بمدرستي الثانوية القديمة ولم تتغير قسماته كثيرا لذلك تذكرته على الفور.. أنت تعلم أنني لا أنسى الخلق بسهولة.
- ولمَ حاول خداعنا؟! وما معرفته بعائلتنا؟!

اكتفت بالسكوت لوقت طويل في حضرة أنفاسه الهائجة وعقلها يصفع لسانها الذي عقد ولم يخبره الحقيقة كاملة:

- أظنه أراد مالا أخي فقد كان فقيرا! هذا ما أعلمه.

كل ينقلب ضده. الدوار يأكل رأسه أكلا يفتك جسده فتكا.

تصنع الهدوء عند بلوغ شهقات شقيقته مسامعه فربت على رأسها قبل تركها. يحاول لملمة شتات أفكاره وكأن الهموم باشت فكانت من نصيبه تُصب عليه دفعة واحدة. لا يعلم بمن يركز. أبمن خدعته وتنكرت بفتاة شغلت باله؟! أم من تنكر بشقيقه ففر هربا ما إن كشف أمره؟! أم بشقيقه ذاته الذي طال فراقه ولا يعلم متى لقائه؟! والأهم من كل ذاك من عادت من فوهة الماضي.

أغلق باب غرفة أخته الباكية تعض أناملها ندما لتسترها عليه. لا تعلم سبب خداعها هي الأخرى لشقيقها المسكين. لم تقل حقارة عمن قرر التلاعب بعائلتها وحصل على معلومات من حيث ما لا تدرى. اندس رأسها بوسادتها تكتم أنفاسها كمن تعاقب حالها لفعلتها.

رفع رأسه عاليا واستند على الحائط المجاور للباب. انطبق جفناه في وهن والسكينة هجرته كالسابقون.

سخرت بسمته من صوت فتح الباب الرئيسي تبعه قرع قدمين صغيرتين حفظهما عن ظهر قلب لأكبر مخادعة وأكثر ألم غائر بقلبه وجسده.

عادت للمنزل شريدة شاردة. أصدر الباب صريرا انكمشت تباشيرها إثره. الشجن بات يلازمها وضيق كاهلها يثير كللها. خطت كالسكير على درجات السلم الطويل ورأسها مال لأسفل مجاريا طاقتها المهدورة. تسمرت محلها لما أبصرت ظل ضخم أمامها.

رفعت وجهها في هدوء وبطء محاولة ضبط ملامحها المرهقة. طالعت من لم يتخلى عن نظراته المبهمة والبرود على وجهه باد أكثر من معالمه ذاتها. ازدردت ريقها ونبرته في السؤال عن حال جارتها يقشعر له الأبدان. طمأنته في توتر بالغ. حال الصياح الصاخب دون فرارها.

اقتفت نظراته أثرها وانكمشت قسماته. زم شفتيه كمن على وشك البكاء وكأن غشها نصلا استنزفه. يتفاقم عجبه من عدم كشفها وزجها خارجا.

لمَ يتشبث بها في حين أنها تخطط لتدميره.

قطع سبيل أفكاره للنجاة هدير والدته. هرع لغرفتها تتبعه من أصابت بسهم براءتها قلبه المكدوم لتكذيب كذبتها فيصل لحقيقة يرضاها بل الأحق القول يرضاها لبه!

ألقت حذاءها أرضا مضرمة بالغضب. لا تمر ثانية إلا وتوشك النحيب فتعاود بسط تباشيرها تأبى الضعف.

عضت "بلقيس" شفتها حد الإدماء تتذكر كلمات شقيقتها والعالم أجمع يقف ضدها. لمَ الجور على المظلوم تاركين الظالمين يهنئون؟!

- "بتول".. شقيقتي؟!

كان سؤالا أكثر منه نداءا. تتعجب حتى شقيقتها تشكك في قصتها ولا تمر لحظة إلا وتخيفها بالتخلي عنها. العالم يسلبها أعز ما تملك بداية من عائلتها نهاية بالعلاقة الطيبة مع أختها.

صرخة عميقة والقهر يعم نبرتها. أغمضت عينيها منهارة على ركبتيها مسلوبة الإرادة ودموعها تسيل.

متى تلقى راحتها؟! متى تهدأ نيرانها وتثأر لشبابها؟! متى يحل النحس عنها ويقف القدر جوارها؟! متى ومتى.. ولا إجابة تشفيها.

نهضت شاهقة تحرر سكينا صغيرا من جيبها بحركة خاطفة. بصرها على مقبض الباب الذي يتحرك عنيفا وجسد ضخم يدلف بعدما أترس الباب.

رمقته متفحصة ثيابه البالية ووجهه المترب لكن تلك المرة غلبتها إشراقة وبسمة واسعة جعلته جذابا رغم الدنس!

خطا مصفرا في مرح وفرحة عارمة. يلقي السلام على كل من يقابله بالطريق على غير عادته والمارة حوله متعجبون من أمره. الوحش المخيف غدى رجلا لطيفا!

وقف أمام باب شقته... عفوا شقتهما هو والغريبة!

أرعش المقبض كعادته ليثير رعبها مجزما أنها تلتفت حولها لتمسك السكين الصغير بيدها وكأنه سيؤثر به إن قرر الهجوم عليها!

دلف بابتسامة متسعة تضاعفت لقهقهة عالية يرى الصدمة على معالمها متعجبة حاله المتقلب حديث العهد.

افترش الأريكة مارا بها فانتفضت مبتعدة وعقدة حاجبيها لم ينفكا بعد.

- ما بال ابتسامتك الغريبة؟!
- جميلة.. أليس كذلك.

كان رده ليغيظها مصحوبة بالغمز. ضحكت في اصطناع قبل أن يحتد وجهها هاتفة:

- كالبغال!
- عفوا!
- ابتسامتك كالبغال.

ضحك بطيئا في خلو من المرح يجاريها. مال للأمام يستند على ركبتيه هاتفا كي يستفز برودها:

- البغال لا تبتسم عزيزتي بل تظل عابسة مثلك.

كتم ضحكة كادت تفلت وقد لاحظ الشد الواضح بفكها تكاد تنفجر. عزمت الذهاب لغرفتها وقد وصلت لأوج غضبها حتى توقفت جراء هتافه:

- "بيل"! ما بك عزيزتي؟!

طفح بها الكيل. تلفتت وهدير أنفاسها يصفعه رغم المسافة بينهما ثم صرخت:

- أدعى "بلقيس" لا "بيل" ولا "عزيزتي"!

آاه كم تبغض لقبه لها ب"بيل"! تبريره الأرعن مثله أن اسمها غليظ النطق فيلزم أسهل الطرق بمناداتها كما أخبرها حتى اعترف لها منذ مدة قصيرة عن سبب تسميته الحقيقي مردفا في سخرية: (صوتك مزعج عزيزتي كقرع جرس صاخب وللحق جمالك لا يهون على قلبي أن ألقبك جرسا فاخترت "بيل")!

جفلت وأذناها تلتقط صوت ارتطام إصبعي يده أمام وجهها يرفع حاجبيه مسنفسرا فتنهدت متسائلة:

- ما بال سعادتك؟!

زادها عجبا هيامه والبسمة الغبية تعاود الظهور بتنفس ناعم لا يلائم جسده الضخم والذي على ذكره زاد تمسكها بسكينها.
استمعت لرده:

- تخلصت من الماضي. الآن يمكنني العودة.

تهدل كتفاها وانفرجت شفتاها تجزم أن العالم انقلب ضدها.
خسرت أسوء صديق مقرب لها!

هتفت متمسكة ببقية قوتها:

- كيف؟!
- تسلمتهم الشرطة وتخلصت من شرهم. تخلصت من العائق بيني وبين أحبتي. حان وقت عودتي ولا تقلقي سأترك المنزل لكِ.

همست مبللة شفتيها بابتسامة مرتعشة:

- أوه. مبارك!

أولته ظهرها وجاءتها نبرة يشوبها يأس وحزن:

- مبارك؟! فقط؟!

همهمت له تحكم غلق فمها كي لا تنفجر في بكاء حضر على حين غرة. تحدث وابتسامته زالت بزوال حماسه لردها الفاتر:

- حسن.. ألن نتعرف بآخر لقاء حتى؟!

ازدردت ريقها متلقفة نفسا عميقا تحرك رأسها دونا عن جسدها. طالع جانب وجهها المختنق كصوتها:

- من الأفضل أن تظل علاقتنا سطحية ولا نية لي الحديث.

ركضت لغرفتها تاركة إياه بحال منافٍ سابقه فهمس:

- آاااه.. ما بك "قاسم"؟!

هرع صوب والدته الممددة لا حول لها ولا قوة تبكي عنيفا مرددة اسم ابنها. احتضنها سريعا دامع العينان يربت على ظهرها. التقط كلماتها المتحسرة ودعاؤها بتعجل لقائه وجمع شمل عائلتها.

تطلعت للسيدة بأحضان ابنها فترقرقت عيناها وحافز جديد يجعلها تقسم معرفة كل شيء كاملا لتقطع شكوكها وتقرر وقتها خطوتها القادمة حتى لو اضطرت لمخالفة أوامر أختها.

تآكل قلبه فزعا. كل ذرة به تتأهب لهجوم قريب يهلكه وينهيه.

لكم جبينه قانطا فعلته الغبية وركضه لمعالجة الصغير بمال حرام دون خوف الله.

أسند "عصام" رأسه على طرف الفراش كما استند ظهره. أنغض رأسه وقد خسر كل شيء بداية من خطته الفاشلة نهاية بها هي من رأته بأبشع صورة!

كز على أسنانه في غيظ متذكرا السبب بكل ذلك. "بلقيس" الطالبة اللعينة عنده والتي ألقته بذلك الطريق غافلا عن نهايته. تغضن جبينه في حيرة. لا يعلم كيف بثت الثقة داخله بتمام المهمة وقد كُشف في باكورتها؟! أيعقل علمها لتعجل الإخفاق وكان فشله مهمتها الأصلية؟!

لا سبيل سوى استكمال حياته لحين إشعار بنجاته إن سامحه الله أو هلاكه إن وشت عليه "فريال" فينل نصيبه من العقاب!

"قاسم"

غريبة عاطفتي تلك. أراني تبدل حالي وفقدت جزءا ليس بالهين من بهجتي. بعدما طرت بسماء الحرية هبطت درجة بل أكثر فأصبحت طائرا يعافر الصعود أعلى درجات السماء ويبقى العائق جناحي المكسور بردة فعلها الغريبة.

توقعت استفزازا ، حزنا ، فرحا، لكن جمودا وصمتا؟! لم يخطر ببالي يوما أن أراها هكذا بلحظة لطالما اشتهيتها. توقعت ابتسامة مستفزة كخاصتها والتي تنفرد بها دونا عن غيرها تخبرني مدى فرحتها بانصرافي عنها؛ فاستفزازي لها ليس بالهين هو الآخر. توقعت بعض الحزن لوحدتها القادمة وحلول سنوات الفراق القادمة.

كل متوقع عدا الصمت. لم أظن يوما ان أراها ساهمة باللاشيء غير مبالية. ألا أفرق معها؟! ألا ترى ما ستخوضه وحدها؟! أيعقل أنني كنت سفينة قادتها للبر فأصبح ابتعادها آخر اهتماماتها؟!

"بلقيس"! دوما ما تثبتي عكس يقيني وأفاجأ بأفعالك المنتقاة في عناية. تبرهنين قسوة قلبك لما قابلته والذي تخفينه عنى.

ابتسمت ساخرا وكأني باردت بفضح أوراقي أمامها. أخفيتها عن أعينها الباهتة إلا من شعاع صغير لم يفقد لمعته بعد كما أخفيت خاصتها هي الأخرى.

عاودت الجلوس وقد هويت ببؤرة الماضي أتذكر كل ما مررت به. كم يؤلمني لبّي بتذكر كدماته الغائرة التي لم تلتئم بعد.

ارتفعت طبول قلبي تضرب ضلوع جسدي فيهتز صدري ومعها أنفاسي المضطربة. أراه أمامي بجبروته يسقط هوارته عليّ فأصرخ ألما تتبعني صرخات عائلتي مرتعبة. أراه يلقيني أرضا فيركلني أمام أهالي القرية وأسرتي خلف قيود البوابة الضخمة ينوحون مشاركين إياي الدماء النازفة من بقاع جسدي خائر القوى.

كأن كل لحظة تُحاك أمامي فأستشعر الشجى ذاته. عقلي لم ينشغل تلك المرة بآلامه قدر انشغاله بكرامة صاحبه المهدورة تدعس من قبل المشاهدين في خنوع.

كانت فاصلا بين الماضي والحاضر. ما إن فرغ مني حتى فرغت أنا الآخر مما يطاردني. عزمت الفرار وترك كل شيء. أقرّ أنانيتي فالمحب لا يهجر أحبابه ويفر وحده من الهلاك. لكن علّمني والدي أن الكرامة فوق كل شيء وعقلي النصف واع لم ير سوى الهجران مفرا من عذابه.

جررت ذيول خيبتي وانصرفت مستغلا انشغال البقية عني بالأحاديث عما وقع في شفقة حتى تقصيت القرية.

ارتحلت فظننت الراحة سوف تسكنني. خالفني القدر بهموم جديدة. لا قوت، لا ملبس ، لا مال. فقط جسد عار بعض الأجزاء يسير بالأزقة لا يعلم أين راحت به الحياة.

وقعت تحت براثن ذئاب جديدة فكان عذابا من نوع آخر. منظمة من المتسولين يسرقون الأطفال والشباب يُكرهونهم أن يشحذوا! كان لي نصيب معهم عندما لم أجد حالي سوى بينهم.

ليت الأمر عند ذلك الحد لكنت رضيت بما لاقيت. بل تطور للسرقة والحرق إن رفضت. شاب يكاد يكمل العشرين ربيعا يحرق ويُرغم على السرقة وإلا قُتل. كم هو مخز تذكر ضعفي والذل الذي أغرقني طوال حياتي! كم أكره ماضيّ ما إن يجول بخيالي!

تنهدت وبعض الصفاء يجيء رويدا رويدا بشعاع نور أطلّ عليّ منذ ما يقارب العام. بعد أعوام قليلة بذلك العمل المشين تم القبض عليّ في محاولة للسرقة. أبصرت وقتها مدى نفوذ المنظمة التي أتبعها؛ فلقد أطلق سراحي ولم أكمل النصف يوم حتى.

أنفاس حارقة داعبتني قبل تحريرها وقلبي يتراقص على أنغامها متذكرا إياها لا أغفل عن لحظة مررت بها وعينيّ عليها.

"بلقيس"

عنّفت حالي على فعلتي. لمَ البكاء وقد تجهزت منذ أول لحظة للفراق؟ أليس هو من يثير غضبي وفي بعض الأحايين عبراتي؟!

لا يحق ذكر الدموع دون العودة لكل يوم هاجرت فيها من قيد عينيّ لأغلال خديّ.

أرحتُ جسدي على الفراش فانحرفت دموعي عن المسار.

الحرية!

يوم لن أنساه بدأ بإعلام الشرطي لي انتهاء مدتي خلف القيود. لا حروف ولا كلمات تصف الفرحة العارمة التي تملكتني. عصفور تخلص من قفصه وقد أطلق سراحه بعدما وجد مشتر جيد. وكان المشتري هو؟!

خرجت من غرفة الشرطي الذي لم يغفل عني طوال فترة سجني بعدما دعوْني لمكتبه يبارك الخروج بابتسامة حانية تُعلمني يقينه من براءتي.

خرجت من مكتبه في صدمة منفرجة الشفتان. أصابع قدمي يتضاربون فأحركهم وكأنني أذكّرهم كيفية السير بعدما اعتدت السكون والجلوس وحيدة بجانب مظلم منفردة عن بقية المسجونات.

وكأنني أدركت لتوي حريتي فاتسع ثغري كاشفا عن لآلئي المتراصة تخفي لسانا لا يكف عن الشكر والدعاء. لآلئ من نوع آخر فرت تدفئ وجهي. حاوطت جسدي أبعث الأمان لأوصالي.

اتسعت ابتسامتي متحولة لضحكة غير مصدقة. خطوت بطيئا خشية السقوط أراني طفلة تتعلم المشي لكن دون مساعدة من تحبهم ويحبونها.

تأوهت حينها بعدما اصطدمت بجسد صلب أردعني للخلف وانتشلني من دوامة بشاشتي. تطلعت للضخم قبالي بوجه ملوث فثار قلبي رعبا. حثثت قدمي على أن أنأى عنه وهالته تنفرني. تمكّثت برهة لم تكتمل إلا وأظلم الكون فهويت محتضنة التراب الذي أنتظره أن يغمرني يوما فأرتاح من عالم لم ولن أجد مكانا لي به.

"قاسم"

جزعت حينها بعدما خطت قدمي خلفها والفضول يلتهمني قبل أن يحل الرعب لمّا فقدت وعيها بمنتصف الطريق. لم أفق إلا وأنا أحملها راكضا لمنزلي الصغير الذي حصلت عليه بعد عناء. حتى لو كان قديما متآكلا فيكفي جدران حانية أن تحاوطني.

رغما عنى وجدت يدي تنقبض أتلمس باطن كفي والشعور بملمس شعرها يعاودني. وضعتها أعلى الأريكة العتيقة أتلمس شعرها المجعد دون قصد فسرت بي صاعقة وابتعدت مرتجفا.

قهقهت وكأنني أشاهد ذكرياتي بالتلفاز. أراها الآن تستيقظ بعد ساعات قليلة مرتعبة متسائلة عن مكانها.

لم أكف عن طمأنتها حتى هدأت أوصالها. توسلت أن أبعثها لشقيقتها. حزن تملكني بعدما خُيّل لي أن تكون صديقة تتسلى معها روحي وشريكة سكن أقاسمها كل شيء فنتسامر الحديث ونتشارك الحكايات علها تطرد وحدتي.

سألتها عن منزل شقيقتها التي علمتُ جهلها خروج أختها من السجن اليوم. قدتها لمنزلها كما وصفت عنوانه متهدل الكتفان وكأنني فقد لعبتي.

لم تمر أيام قليلة إلا ووجدتها أمام منزلي باكية مرتعشة من قرص الشتاء وقساوة الأمطار لأتعجب عودتها. تسمرت محلي أبصرها عهدا جديدا لن يزول بسهولة!

"بلقيس"

أغمضت عيني لثانية ألفظ الدموع العالقة فأفتحهما على مقابلتنا لثاني مرة ومخاطرتي بعودتي.

لم أصدق أنه تركني أرحل سالمة بل أوصلني لمنزل شقيقتي التي لطالما أمْلَتَه علي بزياراتها القليلة إزاء دراستها بالجامعة أو عملها بإحدى المطاعم وبعض الأحيان بشركات صغيرة تجمع مالا لتأخذ دورات تدريبية تزيد قدراتها وإمكانياتها. أما أنا فعلى النقيض تماما وقد بلغت مرحلة تعليمية هينة بصعوبة.

تملكتني الغيرة والحقد. زيل أمان ظننته سيحضر معها. أرى صور عائلتي التي حرمت منها بكل مكان فلم أتمالك حالي عن هجرها.

اكتفت "بتول" ببضع دمعات! اتضح لي أن سنوات الفراق ولّدت بعض الجفاء بيننا فزاد إصراري على الرحيل بعدما أعطتني بعض الأموال أكفل حالي بها ولم تزد توسلها بالبقاء كأنني حمل تخلصت منه!

لم أعِ سوى وقدميّ تقودني تجاهه. مجاورة غريب واحد أهون من العديد. كلماته الأخيرة قبل تركي تضرب أذني (بالتأكيد حفظتي منزلي. أنا هنا وقتما شئتي!). كانت طوق نجاتي من التشرد. مثلت أمام منزله حاملة سكين صغير ابتعته بطريقي ولهجتي خرجت آمرة أكثر منها طالبة (سأسكن هنا)!

هززت رأسي متعجبة فعلتي. وكأن أيامي السوداء أفقدتني عقلي وجراحي أخلتني من الوعي بديلا عن دمائي الغائبة لفرط استنزافها.

من العاقلة التي تقبل الحياة مع شاب غريب عنها مهما أخذت حيطتها؟! ومن الواعي الذي يقبل بما فعلته؟!

لكن للحق بات أجمل تهور بعدما حييت معه بضعة أيام. رأيت بعينيه حنان وبابتسامته أمان لم أعهدها لتقل حدتي وخوفي.
سرعان ما عادتا بانقلاب حاله بادئا مشاكساته. دوما ما يستفزني بكلمات باردة منهيا بلقبه السخيف لي. زاد تمسكي بسكيني رافضة التخلي عنه مهما زاد أماني. سأظل أحمله وأترس الباب بإحكام.
تعلمت أن الزمن يغدر بالجميع فما بالكم بي وأنا وجبته الشهية؟!

"قاسم"

أزحت كل ما ينغص حياتي عازما الحفاظ على سعادتي بقرب عودتي لعائلتي.

فكت قيود غمتي وذكريات مشرقة تداعبني أتذكر الشهور القليلة الماضية بعدما قررت ركل ضعفي والبحث عن عائلتي.

ذهلت حين استماعي لمن كلفته الذهاب لقريتي يأتيني أخبارا عنهم فهالني ما علمته.

قتل الفرعون على يد زوجة صغيرة وضحية جديدة. هروب عائلتي بعدما كاد يفتك بهم أهالي القرى.

وما زاد صدمتي أنهم بنفس مدينتي. جواري ولم أشعر بهم؟! نفس الهواء ولم أستشعر دفئه؟!

كانت صدمة أخرجتني عن خضوعي لأنهض مقسما العودة.

ابتسمت متذكرا شقيقي الأصغر وما حققه من نجاحات باهرة لأشفق على حالي ولم أحقق سوى الضلال والخزي.

كانت بداية قوتي ونهاية ضعفي. انتفضت على الجميع أبذل ما بوسعي للتخلص من تلك المنظمة التي أوقعت حالي بها.. وقد كان.

انتهى أمرهم بعدما أفشيت سرهم للشرطة مقابل تعهد بخروجي دون اعتداء أو ما يديننـي. حقا أتعجب حالي. أعائلتي تحفّزني أكثر من كرامتي فأثور لأجلهم دونا عن نخوتي؟!

استمريت لأيام عديدة وشهور قليلة أجمع المعلومات باذلا كل ما بوسعي لأصل لتلك اللحظة.

الحرية.

مبتغاي الوحيد والذي سيقودني لأسرتي الحبيبة. الآن فقط أستطيع الصراخ مطالبا لقياهم. الآن أستطيع الركض لأحضانهم أعوضهم ويعوضونني. الآن نستطيع الحياة بلا ظلمة وسواد.

الآن أخبركم بداية عهدي وحياتي وقوتي.

بالكاد أكملا العام معا وكل لا يعلم قصة الآخر! قلباهما تجاورا السكن وعقلاهما يتضاربان كل يشاكس الآخر. تهالك بدنهما من القدر فكانا دواءا لبعضهما.

(فاقد الشيء لا يعطيه) مقولة أثبتا خطأها بجدارة للجميع. فاقد الشيء هو الأزكى في أن يعطيه!

فقدا الأمان فبث كل الآخر به حتى لو توهم عقلهما بالمغاير.

فقدا المحبة فظللهما لين قلبيهما حتى لو أنكرا.

فقدا العديد فأوهم كل منهما الآخر بامتلاكه الكثير.

عمت الحياة أرجاء المنزل العتيق يسكنه روحان هزيلان.

ويا للسخرية! ما يقارب العام وهو لا يعلم شيء عنها سوى رغبتها بالانتقام من أشخاص تسببوا في حبسها.

ما يقارب العام وهي لا تعلم سوى فراقه عن عائلته واستعداده للعودة. لا تعلم سوى موعد عودته مزامنة مع موعد قرب انتهاء انتقامها فيحيا كل سعيد بما بغي فحصل.

عدل فراشه المبعثر إثر ضربات قبضة يده ذات العروق النافرة كعينيه الجاحظة. الهموم أضعفت كاهله. طوقه الفراش في شفقة يواسيه قرب شروق الشمس فتزيل الظلمات الحالكة التي ظنها تركتها هانئا.

فرت دمعة من قضبان المترقرقين. يرجو الحفاظ على ثغره مغلقا وإلا تسربت شهقاته واحدة تلو الأخرى مطالبين الحياة.

رفع رأسه عن الفراش يطالع الحائط أمامه في شرود. دموعه تتسابق الخروج وكأنه ماراثون كل يتآمر والناجح الأكثر حرقا واحتراقا!

- لمَ؟

ما استطاع "مهران" سوى التفوه بذلك. يراها قبالته بوجهها الملائكي الكاذب. ليس بيده سوى أن يسأل طيفها سبب عذاب صاحبته له.

يتعجب فعلتها وبراءتها المختلسة من براءة الأطفال وكأنها نالتها بعد عناء فاحتضنتها محافظة عليها مهما نمت وتغيرت.

استقبل الفراش طعنات الإعوال. انشطر نصفين واحد لها والآخر لشقيقه يحيطهما المدعوة "بلقيس" التي لن ترحل سوى بعد تعكير حياته.

حقا يتعجب البشر وقساوة قلوبهم. لا يتركون مرتاح إلا ويكدرون صفوه. لمَ الانتقام وقد فعل ما بوسعه لأجلها؟!

يعترف ارتكابه خطأين فادحين أشدهما عندما بعث أفكار هوجاء بعقل صغير لا يعي الصواب من الخطأ فأسقطها بزجاجة أُغلقت فوهتها وسُحب هواؤها.

والثاني لمّا رفض التفتيش عنها ومعرفة أخبارها ما إن استقرت أحواله بالمدينة لكن هدفه ما كان سوى ترك كل ما آلمهم بعيدا بعدما أحرق كتاب الماضي.

اختار بداية جديدة بنهاية سعيدة لتأتي هي كي تخالف مخططاته.

ليتها أصابت عقله بعودتها لكنها استخدمت شقيقتها فأصابت قلبه أيضا.

- آه "بتول"!

عاتبها وكأنها أمامه. خويت أفكاره وتشتت ذهنه. لا يعلم بم يفكر وماذا ينفذ.

الصدمة أجفلته فعجز عن الحراك. لا هو يبحث عمن خدع عائلته والذي يقسم أن بينه وبين الثائرة علاقة ما، ولا هو فضح تلك الكاذبة وجعلها تندم لفعلتها.

التشتت والخواء كل ما وجد. أطبق جفنيه في استسلام وسلام تاركا كل شيء ينقاد خلف القدر الذي لم يعد يأمنه بعدما تسلى عليه هو وعائلته.

تستشعره يناديها.

لازالت تراه يحتضن والدته يواسيها. دموعهما اختلطت أمامها. شاركتهم البكاء صامتة في حرم الشجن المختلط مع الأجواء الضائقة. إيمان بحلقة مفقودة. من رأى الظلم وفقد حبيب محال أن يصيب غيره ما أصابه. شقيقتها لن تكذب عليها فلمعة عينيها تخبرها صدق حديثها وكذلك قلبها المائل لعائلته الطيبة لن يخدعها.

تغضن جبينها وسؤال يطرحه ذهنها (لمَ البحث عن المخطئ بدلا من الركض وراء الحقيقة؟!). فلتبحث دون التفكير بأيهما مذنب. قد يصل بها الأمر أن كلاهما محقان لكن بطريقتهما؟!

أُنير جوفها وابتسمت راضية مقسمة إنهاء تلك المهزلة سريعا. ينال كل نصيبه من حكاية تخشى خروجها منها خاسرة!

تطلع لرقم هاتفها الذي حصل عليه من المركز حيث كان لقياها فتتحول سعادته بقربها إلى تعكر وندم لمعرفتها.

استمع لرنين الهاتف المماثل صخب دقات قلبه. يرجوها الرد فيفعل ما عزم بعد تفكير طويل أرهقه وسلب نومه فلم يغمض له جفن.

أتاه صوتها المختنق دلالة على بكائها. عض شفتيه وكاد جفناه يحتضنان بعضهما مخزي حتى هتف:

- إنه أنا! "عصام مختار".

سارع مكملا حديثه بعدما التقط زفرة تبعها جلبة مدركا رغبتها في قطع الاتصال:

- أرجوكِ استمعي إلي!

جالسة أعلى فراشها تحتضن ساقيها ودموعها لا تنفك عن المسير أعلى خديها النديين. شهقاتها تخرج تارة في خفوت وتارة بصخب متمردة على رغبة صاحبتها في الصمت والهدوء.

ضجرت "فريال" من رنين هاتفها فالحديث آخر ما تنويه بتلك الليلة المظلمة. أجابت دون رؤية اسم المتصل إن كانت تعلمه أم مجهول.

حل الصمت هنيهة حتى شقه شهقة كبتتها وتلك النبرة تعلمها. هوى الهاتف على الفراش فتلهفت بالتقاطه محاولة غلقه حتى سكنت ورجائه بالاستماع أجفلها.

كل ذرة بها تتضارب مع الأخرى من يرفض الحديث ومن ينتظر التفسير حتى احتلها الفضول وألم الخذلان لتجد يدها تلصق الهاتف بأذنها المستمعة في إنصات تلتقط كلماته القصيرة التي لم ترضيها:

- "فريال" الحديث على الهاتف لن يجدى نفعا. يجب أن أراكي!

تزعزعت تباشير وجهها والخوف شملها متخيلة إياه يؤذيها حفاظا على سلامته فلم تعِ سوى ولسانها الأبله الخائف يتمتم مرتعبا:

- أقسم لم أخبر أحدا هويتك!

زفرة طويلة مرتاحة أخرجها وهمومه زالت . قال بنبرة لم تخفى فرحتها عنها فلعنت غباءها وقد زادته أمانا:

- أحسنتي! استمعي جيدا "فريال"! أقسم لم تكن نيتي سوءا بل أجبرت لفعل ذلك. فلتحضري الحصة القادمة بالمركز وسأخبرك ما حدث.

ران عليهما الصمت طويلا تتنفس سريعا خائفة. تتمسك بالهاتف خيفة سقوطه لفرط الارتجاف والتوتر فزعمت الشجاعة:

- حسنا.

ابتسم على الجانب الآخر مقررا إصلاح بعض مما أفسده شاكرا ربه أنها لم تفضح أمره وإلا لكان كتب موته مبكرا فما رآه من ثراء ورفاهية يجعلان ثأرهم ليس هينا!

أغلقت الهاتف متطلعة للخواء. عقلها ولسانها يتلقيان الصفعات من كامل جسدها لتهورها بإخفاء أمره بل زادت الطين بلة حين وافقت على لقائه بعدما عقدت عزمها ترك المركز والتدريب نهائيا مختارة التزام منزلها.

نفخة هواء ساخن صدرت عن ثغرها وجسدها يلامس الفراش ككفها المستقر على قلبها المرتجف ضرباته. نادمة لكن الأمر وقع وحسم. ستنفذ وعدها برؤياه تعلم أسبابه ثم تنهي الأمر.

- اطمأني "فريال" لن يقدر على أذيتك بالمركز.

هكذا طمأنت حالها. ستستمع لتبريراته فإن كانت واهية حكم على نفسه بالهلاك بعدما أخمدت نيرانها فأضرم شجاعتها وتمردها بكلماته التي جعلتها تأمل مبررا قويا دفعه لمثل ذلك الجرم أو يلقى عقابه الكارثي!

انتهت ليلتهم بأحاديث أذهانهم وأقاويل قلوبهم وصمت ألسنتهم. حضر الصمت ستارا تبعه غلاف النوم. كل يستعد لحرب ليست بالبعيد!

أنبغض البكاء رغم وفائه

لمّا لازمنا عند مولدنا وتتبع الأحباء بعد حتفنا؟!

إسراء عبد المنعم

أنير الكون وفرت الظلمة الحالكة تاركة الأجواء الخاوية ولكن أتترك قلوبهم الغائرة؟!

عدّل "مهران" ياقته في جمود وجهه مسود كعينيه التي بالكاد ترى؛ فلم يغمض له جفن. خطا بطيئا بقدميه المهتزتين بالكاد تحمله. الأرض تميل به ووعيه سُلب كاملا. لم يفق سوى وهو يتوسط طاولة الطعام يرمق شقيقته ووالدته كل مطبق رأسه للأسفل وغيوم سوداء طلت عليهم جاذبة البهاء والصفاء ملقية الغمة والظلمات.

كان يحرك شوكته بالطبق دون أن يمسس الطعام كحال الجالستين قبل أن يكف مستمعا لخطوات يحفظها نعم الحفظ.

سارت في خيلاء وكأن الأمر لا يعنيها. عقدت ذراعيها أمام صدرها وإحدى قدميها تدك الأرض دكا فتكشف خفاياها. ابتسم من يختلس النظرات إليها وهو يحكم غلق حقيبته الضخمة ذات الرسوم المميزة.

أمسك الحقيبة تداعبه بسمة خافتة. التصقت عيناه أرضا قبل أن يتحركا تجاه الماثلة أمامه جامدة فتبدّلت البسمة الهادئة لأخرى حزينة:

- تشعّب طريقنا.
- ومتى كان موحدا!

صدته بكلماتها المتعجرفة كعادتها فخلت قهقهته من الروح:

- ماذا أنتِ بفاعلة؟

ابتلعت غصتها واهتزت عيناها الباهتة قبل أن تجبرها الثبات كوقفتها التي تتحكم بها بصعوبة هامسة:

- أستكمل حياتي تباعا لإكمال ثأري.
- إنها النهاية.. نهاية طريقنا.. ألا تريدين قول شيء.. كالإفصاح عن هويتك وخفاياكِ.. مثلا.
- وكأنك أخبرتني هويتك أو خفاياك.. بالكاد أعلم اسمك "قاسم".

أنهت حديثها هازئة ليحتله العناد كالأطفال محتجا:

- أخبرتك لن أتحدث قبلك.. اعترفي أولا وسأتبعك!
- ستفوتك الفرصة "قاسم"! لا داع للتأخير.

مُطّ جانب فمه في نباهة قاطعا المسافة بينهما. استشعرت قرب أنفاسه فارتعدت أوصالها خاصة بعد كلماته العابثة الخبيثة:

- أراكِ تخليت عمن تظنينه سكينا؟!

كزت على أسنانها متلفتة سريعا تراه وجها لوجه رافعة حاجبها المنمق في حدة:

- لا تهزأ بمن صنّمك محلك!
- لو أردت إيذاءك لفعلت "بيل".. ليس سكينا بحجم أظافرك الجميلة من سيرضخني عن رغبتي.

انزعجت لامتداد حديث بلا نفع فأفسحت الطريق أمامه قائلة:

- طريقك مزهر.. مزعجي!
- لا فض فوك صغيرتي. شرف أن تلقبيني بمزعج بل وتزيدينها بياء ملكيتك التي لا تقل لطفا عنك! قلبي لا يتحمل كل ذلك الدلال!
- "قاسم"!

صرخت بها بصبر نافذ ليضحك تلك المرة من قلبه.

سهم بما سيحدث بعد دقائق طويلة يلقى بها عائلته متجاهلا حزنه لفراقها قدر الإمكان حتى لو تصنع ذلك.

خطا فأوشك الاختفاء ثم توقف عن المسير مبتلعا آخر غصة قرر الخلاص منها بذلك البيت. سيهجره بما مضي ويصير إنسانا جديدا بحاضر ومستقبل مختلف. التفت للماثلة خلفه يبتسم لها لآخر مرة.

رأت ابتسامته النقية فبادلته سريعا وكأنها كانت تتأهب لها.
سرعان ما زالت بزوال جسده عن رؤياها تاركا محله فارغا.
ترقرقت عيناها بالدموع وانطبقت شفتاها تطالع المنزل حولها بقلب شغره الشجن وهمست:

- متى تصلين أنتِ أيضا "بلقيس"؟ متى؟

ابتلع غصة تتشكل بحلقه مؤخرا كلما داعب رحيقها أنفه بعدما كانت نسيم حياته أصبحت لهيب خواليه. تحرقه بفضحها ضعفه وغبائه لصمته حتى الآن وكأن الصدمة لازالت تلازمه. يتساءل متى سيشرع بالتصرف. أسيظل محله تاركا المنتقمتين يثأرون لما لا يعلمه؟!

جفل "مهران" إثر صرخات العائلة ليدرك اصطدام قبضة يده بالطاولة عنيفا دون إرادة منه. حمحم معتذرا ناهضا عن مقعده وعيناه صوب من هبطت الدرج والصداع يلاحقها فجلست دون سلام وداخلها عدة أسئلة متحيرة عن كيف تبدأ كشف الحقيقة الكاملة. أفاقت مرتعدة إثر اصطدام صاخب تطالع المسبب متعجبة وزادها عجبا رؤية نظراته الغريبة صوبها وكأنها ارتكبت جرما بحقه!

عزم على مراقبتها ليعلم ما يخبئانه ونواياهما فضلا عن فضحهما فيخسر كشفه مبتغاهما. حال بينه وبين الحديث صوت الحارس الذي تحدث من خلف الباب الرئيسي في بعض من الصياح:

- سيدى هناك من يريدك.

سار بخطى متباطئة ودقات قلبه متلاحقة يستشعر ما يثير دفئه! ما إن طلّ على الباب حتى شهق حد الصراخ متراجعا للخلف كمن رأى شبحا. شفتاه تتأرجحان في الهواء لا يقدر الحديث فتعوضانه بالارتعاش.

وصلت شهقته العالية للعائلة فأحكم كل حجابه حول رأسه والذي يحرصون بقائه جوارهم. نهضت "فريال" عن مقعدها ودنت من والدتها جاذبة إياها للخارج تشرئب في وجل وفضول عمن يخفيه شقيقهم بجسده الضخم. اكتفت "بتول" بالنهوض دون التحرك وجبينها تعرج.

لم تكملا الثانية حتى علت شهقات وصرخات عالية بكامل المنزل الضخم تعمه كأرواح شاردة تتراقص بكل مكان في صخب لا يرحم الآذان.

توقف أمام الباب لا يستشعر سوى ارتجاف جسده وأنفاسه يلتقطها في صعوبة بالغة يستمع لنبرة شقيقه التي لطالما افتقدها تقترب منه متسائلة القادم.

ذرف الدموع والخوف تملكه أن يتوقف قلبه عن النبض قبل لقائهم فتحقق رجاؤه برؤية شقيقه يقف أمامه شاهقا متسمرا.

لم يتغير أي منهما وكأن الزمن توقف عليهما ليظل كل بملامحه المريحة للنفس وتباشيرهما تغلبت على تقلبات القدر فظلت على حالها دون فارق.

داعبت الدموع وجنتيهما يجفلان من صرخات نسائية عالية تبعته مَن هرولت بمقعدها دافعة الصغير تقف أمام الكبير. تنفسها الهائج يعم الأرجاء شفتاها منفرجة غلبها الزراق وكأنه خطف ألوان وجهها فأصبح باهتا كمن قاربت على الإغماء.

انفرجت شفتاه كاشفة لآلئه وجسده خار هاويا أمام من تطالعه في صدمة متسمرة. اقترب كفاه المرتعشان من وجهها يتلمسه في حنان وكلما لمس قسماتها تراجع كفه سريعا خيفة أن تكون طيفا فيخشى ابتعادها. تيقن بقاءها فتمسك بوجهها مسندا جبينه على جبينها. انطبقت الجفون كما أطبقت السيدة عليه تقبله في لوعة حتى قال:

- أماه.

كم اشتاقت لتلك الكلمة التي حرمها منها لتضحك في فرحة غير مصدقة رافعة رأسها لأعلى تحادث ربها بكلمات متقطعة غير كاملة لكن كلمات قلبها تصل إليه فيستقبلها كما استقبل غيرها.

رفع رأسه قليلا تجاه شقيقته التي تحررت من شرنقتها تبدو أنثى فاتنة. نهض عن مجلسه وقدماه ترتجفان. لم يكد يخطو صوبها حتى تشبثت به والدته خيفة من الفراق ثانية. بعث الأمان للبها بكفه المطبق على خاصها والآخر الحر أمسك "فريال" المنتحبة محاولة كبت شهقاتها. شقت الفارق بينهما تضمه وصدره يستقبلها برحابة صدر. هوي معها أرضا يدفع رأس والدته لأحضانه كل أخذت مكانها بضلوعه الصلبة للجميع عداهما فراش وثير يغوصان داخله وقفص من ذهب يقيهما من العالم أجمع. حلم عاشه بسباته وأخيرا تحقق بإرادة ربه.

حُطت يد مهتزة أعلى كتفه فنظر لصاحبها مبتسما مترقرق العينان. شاركهما "مهران" الاحتضان ثائرة وصدر الحبيب كان كافيا لعائلة أهلكها الفراق فأدركت قيمة الاقتراب.

راقبتهم مبتسمة بلا إرادة مدركة صاحب الوجه الجديد بعدما صرخت السيدة الطيبة باسم "قاسم" وقتما ركضت صوبه. تأثرت بالمشهد أمامها وعائلة كاملة متكورة على حالها في قبضة من حديد لن تنفك ولو بنيران حاقدة.

تهيم على وجهها تسير بالطريق ساهمة والدموع تشق طريقها على وجنتيها تجاري قطرات المطر المتساقطة فوقها فترتعش بردا. تدفئ حالها بيديها. انفضت من الوعى وفرغت من العقل بينما امتُلئ القلب وكأنه سلب محتواها كاملا.

تنهدت "بلقيس" تطالع الحقيبة بيدها الحاوية حاجياتها القليلة بعدما استشعرت هاجسا وبرودا عم المنزل لتقرر الانتقال إلى أختها لحين تعودها.

تعودها؟! عم تتعودين "بلقيس"؟! ولمَ التعود وقد قررتي عدم التعلق؟!

رفعت بصرها تجاه جسد صغير مثلها وصاحبته ترمقها متعبة.

كانت تسير شاردة غير مدركة ما حولها. تعبق روحها بعطر اللقاء العاطفي وما غلفه من دموع اشتياق وفرحة ليتهشم قلبها تتذكر والديها وشعور سيء يجول داخلها.

بللت "بتول" شفتيها متذوقة مياه المطر الغزيرة المداعبة جفونها تتزحلق على رموشها الطويلة الناعمة. أغمضت عينيها لا تطيق المداعبة وما بها من هموم يكفيها.

زمت شفتيها تعيد مشهده وتهجم وجهه ما إن تلفت لها فأمرها أن تنصرف لمنزلها لحين يلزمها العودة.

لم تتعجب طلبه فبالطبع يريد تعويض فترة الفقدان لكن لمتى سيطول فقدانها؟!

تغضن جبينها ترى شقيقتها بنهاية الطريق واقفة لا يختلف الحال عنها. تبادلا نظرات تشكو همومهما.

ابتسمت "بتول" آسفة لما لا تعلمه ومدت يدها ممسكة خاصة شقيقتها ضاغطة عليها في دعم. تجرعتا آلام بعضهما وسارتا متجاورتين صامتتين.

منسدل أعلى الفراش بينهما تارة يقبل جبين شقيقته وتارة خاصة والدته.

ابتسم "قاسم" لشقيقه الماثل بعيدا جوار الباب يرمقه في حنان وحب اشتاق إليه كثيرا ليهمس له في مرح مختنق:

- ما بالك يا رجل؟! اقترب.

قهقه "مهران" يزدرد صدمته مع غصته غير مصدق عودته.
جلس على طرف الفراش متطلعا لشقيقه في تمعن.

مرت دقائق وهم على حالهم حتى رفعت "أمينة" وجهها عن صدره يدها المرتعشة تربت على وجنته هامسة ببحة باكية:

- أين اختفيت عزيزي؟ لمَ غبت عنا وتركتنا؟

تنهد "قاسم" متعبا وبعدما عقد النية عدم الحديث بارزته نظراتهم المترقبة فتقهقر قاصا ما مر به عليهم غير متطرف لتلك الشرسة أجمل من تعرف عليها برحلة عذابه.

كل كلمة كانت سوطا على قلوبهم قبل قلبه. يستمعون مشفقين لما عاناه و"أمينة" و"فريال" يزيدونه ضما يواسونه كلما اختنقت نبرته كأن كلماته تندفع بجمرات حارقة.

انتهى الحديث وعم الصمت ثوان قبل أن يعلو صوت تأوهه تبعه حديث والدته الباكي بعدما لكمته في رفق:

- لمَ لم تعد أيها الأحمق؟ كنت قريبا منا ولم تخبرنا! لن أسامحك أبدا.

أزاحته عنها عنيفا متململة غاضبة. طالع شقيقته التي نعست بأحضانه ثم شقيقه الذي حرك كتفيه آسفا غير قادر الدفاع حاجبا غضبه هو الآخر عن ذاك الأحمق فوالدته لها حق الثوران وقد كان ابنها أنانيا في تصرفاته غير عابئ بهم.

تزحزح "قاسم" قليلا بجلسته دون ترك شقيقته الساكنة الرأس فوق صدره تملس عليه في حنان. تلفت لوالدته المتطلعة أمامها بالفراغ تنحو فأزال دموعها هامسا بنبرة لان لها قلبها:

- أعتذر أمي.. صدقيني كل ما بدر مني نبع عن خوفي أن يطالكم الأذى.

رجاؤه أفضى سخطها فداعبت شعره قائلة:

- اشتقت إليك كثيرا.. لن تتركنا.. أليس كذلك؟

أومأ سريعا متسع البسمة يضم رأسها لأحضانه تشارك ابنتها في حب وأُسدل جفناها.

صوّب نظراته على شقيقه الشارد فضاقت عيناه متوجسا وحرارة شقيقه بلقياه تختفى تدريجيا وكأن همًا أكبر من حبه له يحتل قلبه يعكر فرحته بعودته!

تمعن بقسمات "مهران" المنقلبة الأحوال فتارة غاضبة وتارة حزينة وأخرى فرحة مرورا بالغضب ثانية. عقد النية أن يرضي فضوله وقد حان دوره لمعرفة كل ما مروا به.

جلست "بتول" جوار شقيقتها بعدما أزالت ملابسها المبتلة لتتنهد متحدثة:

- ما بك "بلقيس"؟!

طالعتها "بلقيس" وداخلها حرب أن تخبر شقيقتها ما تخفيه عنها والذي يخص ذاك ال"قاسم" فهي تظن أنها تحيا بمنزل مفردها بفعل أموال عملها بمصنع ما وإلا لما وافقت خروجها من منزل والديهما.

تجمدت ملامحها مقررة الاحتفاظ بسرها ولا داع لإفشائه طالما انتهى بانتهاء صاحبه. نفت برأسها علامة اللاشيء ونهضت كي تبدل ملابسها حتى تسمرت محلها إثر كلمات "بتول":

- لقد عاد شقيقهم "قاسم"

اهتاجت أنفاسها متلفتة إليها في صدمة وتعجب للحظات قليلة حتى جذبت شقيقتها محتدة بحديثها:

- أخبريني كل شيء.

أومأت "بتول" في ضيق تقص عليها اللقاء بأدق تفاصيله حتى أخبرتها موعد عودته والذي كان بوقت فطورهم حاملا حقيبة سوداء بالية تحمل رسومات غريبة يتوسطها نمر بلون أشعة الشمس الذهبية فوقها كلمة إنجليزية (stress) بلون الدماء.

شهقت "بلقيس" وكفها غلّف فمها مرتعشة متذكرة فراقهما وحقيبته التي لطالما لازمته. سُلبت الأنفاس تكلّف شقيقتها في ارتعاش أن تصف شكله وهيأته.

وكانت الصدمة الكبرى.

وكأنها تصفه هو! وكأنها؟! ولِم لا يكون هو؟!

عند تلك النقطة بهت وجهها واختنقت غير مصدقة أن يكون هو.

هزت رأسها سريعا نافية وهرعت لغرفتها مغلقة الباب عنيفا كمن يطاردها شبحا.

كزت "بتول" على أسنانها وتباشير أختها لا يفسرها سوى الغضب من لقاء الأحبة! أوصل بها الأمر لكره الخير لغيرها؟! حتى إن كان ما قصته حق فذاك لا يعطها حق أن تأخذ الكل باطلا؟!

هوت "بلقيس" عنيفا جسدها يحتك بالباب وأطرافها بردت حد التجمد. تقوقعت على حالها ولا يدور ببالها سوى(محال أن يكون هو)!

أغلق الباب خلفه في هدوء يماثل هدوءه عندما انصرف عن والدته وشقيقته النائمتين في عمق لم يصلا إليه يوما. فماذا يعكر صفو نومهما وذهنهما وقد عاد الغائب عن عقليهما وليس قلبيهما!

ما إن أغلق "قاسم" الباب حتى وجد "مهران" يندفع لأحضانه دامعا يدعس محاولاته بالجمود والتحلي بالقوة هاتفا:

- طال غيابك شقيقي.. أهنت عليك لتتركني وحيدا؟!

ربت على ظهره الصلب هامسا:

- عزَّ علي فراقكم أخي.. لكن ها أنا ذا عدت ولن أترككم أبدا.
- وكأنني سأسمح بذلك!

أتبع "مهران" قوله بلكمة خفيفة فقهقه "قاسم" يتلاعب بشعر من أمامه لتعلو ضحكاتهما ومداعباتهما الطريفة.

تمددا على الفراش بعدما أقسم "مهران" نومهما بنفس الغرفة اشتياقا له تعويضا لسنوات غيابه فضحك "قاسم" ممازحا:

- سأستيقظ غدا على خبر مقتل أم لابنها لسلبه الآخر من أحضانها.

ضحك "مهران" بأعلى صوته ومحا دموع فرحته متنهدا بعدما تحكم بضحكاته يعتدل بنومته متطلعا للسقف قائلا:

- أهلا بعودتك شقيقي!

ابتسم "قاسم" له في خفوت حتى تطلع للسقف هو الآخر زافرا متحدثا بنبرة مبهمة:

- ما بك "مهران"؟!

همهم متعجبا سؤاله ليعاود الحديث ينقلب على جانب جسده:

- تتذاكى علي! فلنغير السؤال.. ما رأيك أن تخبرني كل ما مررت به؟ من الألف إلى الياء.

أدرك انهيار قناعه أمام شقيقه ولم يجد بدا من الحديث. دفع ما بداخله يعلن عما حدث بداية من استكمال وصلة عذابهم على يد الفرعون نهاية بأكبر صدمة بحياته وهى "بتول". أخرج كل ما بجعبته وكأنه كان في انتظار لمن يستمع إليه دون كلل.

لعن "قاسم" تصرفه الأهوج عندما تركهم متتبعا كرامته اللعينة وليته بقي جوارهم لكان هوّن عليهم بدلا من إيلامهم بفراقه.

ينصت إليه في اهتمام تنكمش ملامحه ألما لما مروا به وكأنه من مر حتى أنهى "مهران" ذكرياته الموجعة. مسح وجهه بكفيه كمن يزيل الهموم عنه.

ظل "قاسم" صامتا حزينا لبرهة حتى توقف قلبه عن البكاء ليبدأ عقله التفكير!

"بلقيس"! انتقام! شقيقة!

اختنقت أنفاسه وتهدل كتفاه. طرد ذلك الهراء مقنعا حاله أنه ليس إلا تشابه أسماء! ولكن وإن كانت الأسماء متشابهة فهل تتشابه الأحداث؟!

- ولِم تفعل ذلك؟!

حرك "مهران" كتفيه جاهلا الإجابة وقال متحيرا:

- لا أعلم تحديدا.. لكن أظنها تريد ميراثها!

أومأ "قاسم" والحرارة تسري بجسده. تطلع لشقيقه مزدردا ريقه في تردد وخوف من أن يصح ما يجول بخاطره. داخله يهتف (محال أن تكون هي)!

ليلة أخرى مرت، ليلة بدأت منيرة فانتهت بغياهب السحاب الأسود وظلمة الكون الشاسع واختفاء القمر الأبيض ومعه تحيرت العقول وتألمت القلوب فهل نجد من حلول؟!

بعد إشراقات شمس وغروبها والمشاعر متلحفة بدموع شقية مشتاقة مجتمعة كاجتماعهم حول الطاولة يتناولون طعامهم.
العيون متركزة على جسد ضخم جديد المرأى عتيق المحبة يأكل مهمهما بتلذذ وشوق للجلوس بينهم.

ابتلع "قاسم" لقمته بين عائلته الصغيرة كل منهم يضع يده تحت خده يراقبونه بنظرة هائمة وشفاه مبتسمة. استقرت عيناه على والدته التي كفت عن الأكل في سبيل إمساك يده المجاورة يدها بقبضة تنافى ضعف جسدها. لثم كفها يطمئنها:

- أنا هنا.

أومأت ضاحكة في سرور لتتحدث ابنتها "فريال" بحماس وفرحة:

- أنرت حياتنا بعودتك أخي.
- تمازحينني "فريال"! وكأن المنزل ينتظرني لينار! يكفي أن تكوني به عزيزتي فأنتِ شمس ناعمة تدفئ لا تحرق.

ضحكت في خجل ونهضت مقبلة وجنته تحتضنه بحب متنهدة:

- اشتقنا إليك كثيرا.
- وأنا أيضا.

ربت على رأسها قائلا متعجبا:

- لِم ترتدين ملابسك تلك؟!

شحب وجهها بعدما تذكرت ما قارب الحدوث ولقائها بالمخادع فاضطربت بقولها:

- ما بك أخي أنسيت؟! سأذهب للتدريب.
- رغم حزني لابتعادك لكن ستعوضينني تلك الساعات بعد عودتك إن شاء الله.
- أمرك سيدي.

قالتها تنحني أمامه واضعة يدها على صدرها بحركة لطيفة ملكية. ضحك ملء شدقيه هو ووالدته عليها. التقطت حقيبتها مودعة الجميع. ما إن أولتهم ظهرها حتى اختفت ابتسامتها وارتعدت أوصالها منتظرة مصير ذلك اللقاء والذي سيكون الأخير. معه ستقرر إما تفتضح أمره أو تتناساه مع تعهد بعدم المساس بعائلتها.

- "مهران"!

نادته "أمينة" حينما انتبهت لصمته منذ هبوطه واجم الوجه يطالع الطاولة دون المشاركة ولو بنظرة حتى. جفل منتبها لها فقال بابتسامة تصنعها في صعوبة:

- نعم!
- ما بك؟!

أنقذه "قاسم" بمرح مصطنع:

- أمي! الصمت في حرم الجمال جمال! وأيوجد ما يماثل جمالك حبيبتي؟!

قهقهت "أمينة" غافلة عن نظرات ولديها.

عاود "مهران" الشرود بهما يستدعي تدخلا حازما تجاههما. لن يدعهما يمسون بعائلته ضررا بعدما اكتملت. لكن شيء لعين داخله يمنعه التصرف أو فضحهما.

ظن لوهلة أنه خوف على عائلته من القلق سرعان ما نفي عقله ظنه. يستشعر ما هو أكبر من ذاك وكأن السبب لا يكمن بعقله بل قلبه!..

بلل "قاسم" شفتيه وكلمات شقيقه لازالت تصعقه. وجل أن يتيقن من ظنه.

يخاف أن تكون هي.. فيكون داعم لمنتقم من أحبته! يدعو داخله أن يخيب ظنه. فقط تعود تلك من تسمى "بتول" وسينتهي التفكير وقتها؛ فقد لمح شقيقتها لثوان معدودة منذ ما يقارب العام عندما أوصلها لمنزلها بعد لقياها بالسجن.

انكب على الطعام يصد أي فرصة لإعادة التفكير محاولا ترك كل شيء للقدر.

قطع شرودهما حديث "أمينة" الحماسي:

- ستنهى "فريال" تدريبها الواحدة ظهرا.. ما رأيكم أن نمر عليها ونتناول الغداء بالخارج؟

استحسن الرجلان الفكرة يتمسكان بأي طوق ينجيهما من هلاك عقليهما التالفين لفرط تفكيرهما. تم الاتفاق على ذلك.. وقد حانت صحوة القدر!

تفرق جفناها فلمعت عيناها المضرمة لخطوطها الحمراء والنعاس يغلبها. ضعف جسدها فنهارها ليل وليلها نهار حتى بات اليوم على شاكلة واحدة. فقط تغفو وما إن تفق حتى تتلفظ بضع كلمات مختصرة لشقيقتها وتتناول القليل من الطعام فتحتضن سباتها ثانية.

نهضت "بلقيس" عن الفراش تتثاءب حتى مثلت أمام المرآة. تسمرت متطلعة لحالها قبل أن تبتسم في سخرية.

عادت كما كانت بسجنها. عادت جثة هامدة ذات هالات سوداء مظلمة ووجه عظمى خال من اللحم كجسدها الضعيف الصغير.

زفرت في ملل تريد الهروب للنوم مرة أخرى لكن تألم معدتها الفارغة جعلتها تكمل الطريق للخارج.

الطريق؟

كلمة مكتملة الحروف غير كاملة الواقع. ومتى أكملت طريق لآخره. متى سلكت الصواب؟!

لطالما كان سبيلها مظلم متقطع ينقصه النهاية. لطالما جهلت نهايته لكن تلك المرة شعور سيء يراودها يماثل يقينها أنه هو.

ضحكت ساخرة من القدر الذي يستنزفها بطيئا.

ساخرة؟!

وألها الحق بالسخرية ممن ترقّى لأعلى درجات الاستهزاء؟!

متى كانت تحترم منه؟! متى وقف جوارها وساندها؟!

صدمة تلو الأخرى أنهاها بالفاجعة.. "قاسم" شقيقه!

لم يجلُ بخاطرها يوما أن يكون الكون ضئيل عليها لذاك الحد. الحد الذي يجعلها تقابل من أنهت عائلته إشراقة حياتها.

استمرت ليومين فارغة من الأفكار متناسية انتقامها ومخططاتها القادمة. صدمتها التي مهما حاولت تكذيبها ستظل حقيقة سلبت كامل طاقتها لتتهرب من الحياة بنومها متمنية عدم انفراج عينيها عل الله يجبرها بمكان بجنته يعوضها قسوة دنياها.

جنة!

تتعجب من أمنيتها. أتطلب جنته وقد تخلت عنه؟!

كفت عن الصلاة حتى حجابها تركته تحيا دنياها متخذة الإسلام عنوانا مضمونه فارغ.

غصة باكية شملتها كلما تذكرت ابتعادها عن ربها. من يصدق أن تشب من حفظت القرآن وتمسكت بحجابها في صغرها على كل ما هو مناف لأوامر ربها.

هزت رأسها عنيفا فيكفى مجتمعها لا تريد زيادة همها بدينها. فليصفو ذهنها رغما عن قلبها تعاود التنفيذ وإلا لظلت محلها بلا حراك.

استرد "عصام" أنفاسه وقد مرت لياليه مظلمة كأفكاره السوداوية تذهب به وتجئ ولا يشغله سوى إقناعها أن تسامحه.

يفرغ من معضلته ثم يتفرغ لتلك الملعونة المستغلة حاجته والسبب لما أصابه.

طالع هاتفه خلفيتها صورة طفل صغير بوجه ضعيف وابتسامة ساحرة تخفي حزن عينيه. دعا أن يجمع بقية أموال عمليته حتى لو اضطر أن يبيع منزله ويحيا بالطرقات. لا تهمه حياته قدر اهتمامه ب"محمد" الطفل الصغير الذي لم يهنأ بالحياة يوما ومن حقه أن يشب ويكبر عله يجد نصيبه يوما من السعادة.

شهقت "بتول" فزعة تسارع إغلاق النار بعدما فسدت قهوتها. دبدبت الأرض في عصبية لازمتها مؤخرا منذ أن أغلق الهاتف بوجهها صارخا أن تعود لمنزلها بعدما أعلنت قدومها.

لأول مرة لم تهمها إهانته قدر تغيره. لا تستشعر القادم خيرا.

شردت بمزاجه المتقلب كل برهة بحال. لا يقنعها أن اشتياقه لأخيه ما يجعله يأبى عودتها. وكأنها ستلتصق بأخيه وتبعدهم عنه!

ألقت فنجان قهوتها بل وإنائه في الحوض والغضب ينتقل إليها خاصة بهدوء شقيقتها المفاجئ.

وعلى ذكرها وجدتها بالصالة فتجعد جبينها حالها. بارزت "بلقيس" تعجبها بابتسامة خافتة واتجهت للطاولة تتناول لقيمات في صمت.

- أخاف حالتك الغير معهودة "بلقيس"! عله خيرا!

همست "بتول" بها يائسة تغير شقيقتها.

اتسع بؤبؤا عينيه يراها قادمة متشبثة بحقيبتها متطلعة حولها في وجل. دلف الغرفة الخاصة بشرحه خيفة أن تراه ينتظرها على الباب فترتعب وتبتعد.

تخطو للأمام فتتمنى التقهقر للخلف. اختارت وستكمل اختيارها. لن تسمح لخوفها أن يردعها عما قررت.

تنهدت "فريال" في راحة عندما لم تجده يقف على الباب كعادته فتصنعت الثقة بخطواتها ورأسها تكاد تنخلع عن جسدها تمدها للأمام لتطمئن قلبها بوجود غيرها معهما.

هدأت أوصالها عندما رأت الجميع جالس وتعانقت نظراتهما. يقف أعلى منصته يرمقها في عرفان لحضورها. أولته ظهرها متجهة لمقعدها رامية إياه نظرة جامدة.

بعث بالأمان لفؤاده قبل أن يلتفت ملتقطا حاجياته مضطربا أثناء مزاولة عمله.

مرت دقائق طويلة باتت ساعات وقد اندمج بالشرح وكم حمد ربه لذلك فإن لم ينس توتره فقد تناساه بعمله.

أنهى العمل فشرعوا الانصراف بينما هي اكتفت بالوقوف تطالعه بنظرات مجهولة.

اقترب منها قليلا متشجعا يزفر أنفاسا حارة.

- أسمعك!

قص عليها كل شيء بداية من تعرفه منذ سنوات قليلة بالصغير "محمد" وتعلقهما الشديد ببعضهما نهاية بعلمه مرضه وضرورة إجراء جراحة باهظة الثمن له. فشل في جمع التبرعات لعدم توفر المبلغ معه. طلت المدعوة "بلقيس" مستغلة حاجته مقابل أن يندس بينهم ليوم يختلق أكذوبة ثم يغادر وكأن شيئا لم يكن.

كانت تستمع حزينة مشفقة لحال الصغير المريض حتى توقف ذهنها ومسامعها على ذلك الاسم.

لا يعقل أن تكون هي! بالتأكيد تشابه أسماء. العرق ينصب من جبينها لحجابها المغطى رقبتها ولم يمر عليهم من يحمل ذاك الاسم سواها هي وإن كانت غيرها فلمَ تقدم على خداعهم؟!

جفلت محلها مرتعبة مثله يستمعان لصوت محتد يناديها:

- "فريال"!

قبل أن يخطو لأسفل بعدما تجهز قابله شقيقه "قاسم" المرتبك الملامح يسأله في توتر عن "بتول" وطول غيابها.

تعجب "مهران" من سؤاله وقال:

- لا أعلم لكن.. لا أريدها بالجوار قبل أن أقرر ما أفعله تجاههما. أخاف أن تظل بيننا فتدمر أحدنا!

ازدرد "قاسم" ريقه صامتا وداخله ينشب عراك بين حروف تتمنى الخروج تصرخ أن يعيد تلك الفتاة فيقطع شكوكه بالحق بعدما لم يجد أي صورة لها مع شقيقه الذي فقد ملف عملها بعد بحث طويل باء بالفشل.

انتبها لاقتراب والدتهما فتصنعا الابتسامة يخطوان تجاهها و"قاسم" يحملها في حنان بينما "مهران" أمسك مقعدها هابطين الدرج مستعدين الخروج لأول مرة معا. حاول صاحبا الجسد الضخم القاء همومهما خلف ظهرهما ولو ليوم واحد يستمتعون خلاله بلم شملهم.

توقفت السيارة أمام المركز فطالع "مهران" هاتفه متأكدا من العنوان قبل أن يهبط مع شقيقه يساعدون والدتهم.

ساروا للداخل متطلعين للأرجاء في إعجاب من رقي المكان بعدما دلتهم المساعدة لمكان شقيقتهم التي انتهى تدريبها للتو.

ظلا خارج الغرفة دقائق قليلة ينتظرون خروجها وسط العشرات من الشباب والكبار فتعجبوا ولم تكن ضمنهم. دلفوا للغرفة كل ممسك مقبض مقعد والدتهم التي ما كادت تعبر الباب حتى شقت شهقتها الأرجاء.

- "بلقيس"!

همهمت لشقيقتها تاركة طبق المسليات عن يدها منتظرة إكمال "بتول" حديثها.

- ماذا تخططين؟!

رفعت "بلقيس" حاجبيها صدمة وكأنه آخر ما توقعت السؤال عنه قائلة:

- هل تصدقينني إن أخبرتك لا شيء؟!

صمتت "بتول" هنيهة حتى نفت برأسها مجيبة:

- ما رأيته منك يجعل اللاشيء محال!

ارتخت ملامح "بلقيس" شقيقتها تنتظر حديثها في فضول قُطع بردة فعلها اللامبالية ملتقطة الطبق مرة أخرى تتناول ما به غير عابئة!

جعدت جبينها غير راضية فعلتها وانصرفت عن التطلع إليها.

استشعرا قرب النهاية مزامنة مع اقترابها بمقعدها سريعا تقف أمامها غير مصدقة ما تراه.

ابنتها تقف مع من لن تنسى وجهه لبشاعة ما فعله!

ارتعدت أوصال "عصام" خاصة وهو يرى رجلين ضخمي الهيئة يقتربون منهم مجعدي الجبين تعجبا ما يدور بالمكان المشتعل.

ثبتت أنظارها على ابنتها التي لا تقل خداعا عنه. تتساءل داخلها أيوجد شيء بينهما؟!

ابتلعت "فريال" غصتها وخزيها أثقلها لتخفض رأسها وكتفاها يتهدلان واضح ارتعاشهما ولسانها معقود مرتابة مما هو قادم.

مط "مهران" شفته السفلى لأخيه الذي يتساءل عما يحدث وسبب الحدة والنيران المشتعلة بالأجواء فقط لوقوف شقيقتهم مع شخص غريب!

نعم يحرّمون اتصال بناتهم مع الغرباء لكنهم أيضا متفهمون. فلمَ تغضب والدتهما قبل أن تسألها سبب خلوتها معه فقد تكون لضرورة ما.

قطع الصمت تأوه "مهران" الذى هوى أرضا إثر دفع "عصام" له بعد استغلاله الذهول الذي حل عليهم ليأخذها طوق نجاة يزيح الرجل عن طريقه راكضا للخارج أنفاسه تسارع الوقت كما فعلت خطواته.

نهض "مهران" بمساعدة شقيقه يصيح في صبر نافذ:

- ماذا يجري هنا؟!

خرجت "أمينة" عن صمتها تجذب ابنتها التي سقطت على ركبتيها عنيفا لتصرخ متألمة.

أبعد الشقيقان ثالثتهما عمن تمسكها في ضراوة وتفاقم تعجبهما. أعاد "قاسم" سؤال شقيقه بحدة ماثلت غضب وحدة "أمينة" وهي تخبرهم ماهية من فر قبل أن يقع بشباكهم.

اتسعت العيون وانفرجت أفواههم عدا من تضغط على ثغرها باكية وقد كشف أمرها الذي لا يد لها به.

صاح "قاسم" بها:

- من ذاك؟ وكيف تعرفينه؟ ولمَ كذبتي على أخيكِ؟

أسئلة متتابعة وشهقات متتالية ولا إجابة شافية. تمالكت "فريال" حالها تخرج ما بجعبتها تقص عليهم ما قصه من هرب تخبرهم كل شيء عله يخفف جرمها.

صمت بالأرجاء ران عليهم والاسم الذي ألقته يداعب آذانهم حتى ارتفعت ضحكات "مهران" الذي انزوى بجانب الغرفة مستند على الحائط في ألم وقد كان أقل صدمة عنهم. ما علمه بالأيام القليلة الماضية أغنته عن كل ما يذهله قادما:

- ليتني تصديت لها.
- من تقصد؟!

قالتها "أمينة" بقلب منتفض خائفة حقائق وصدمات أخرى لا ينقصها جديد بعد خداع ابنتها التي تقابل ذلك الكاذب مهما كانت حجة فعلته لكنه سيظل متلاعبا بمشاعرهم والآن ابنها يتحدث بكلمات مبهمة وقسمات مختلفة شاردة.

أضرمت صاعقة جديدة هالتهم محلهم وخارت قواهم أمام ما يستمعون إليه. قلوبهم تفجرت لتنهمر شلالات دمائهم تكاد تنفجر تلوث ما حولهم.

توقف عن المسير بمنتصف الطريق أنفاسه في علو وتصاعد. استند على ركبتيه يطالع المبنى بما يحويه في حزن ومرارة. لا يعلم أما فعله صواب أم وجب عليه البقاء علهم يشفعون إن علموا مراده.

عقد "عصام" حاجبيه كمن على وشك البكاء والحياة تضيق به. رفع رأسه لأعلى مطالعا السماء الصافية عكس دنياه المتعكرة. متحير من القادم وما يفعله. هروبه لفرط خوفه أنهى أي فرصة للوفاق. اعتصر عينيه إغماضا تزينهما رموشه المبللة إنذارا بالبكاء. رنين هاتفه علا فأجاب سريعا ما إن لمح اسم مربية الملجأ وليته ما فعل!

تهشم هاتفه بعد ارتعاش يده العالقة في الهواء كما علق ذهنه وأذناه على تلك الكلمات (أستاذ عصام! البقاء لله. لقد توفي الصغير "محمد" جراء أزمة قلبية).

قهقه دامعا غير مصدق زاهلا. طاله الانتقام بعدما ظن حاله لاذ بالفرار.

تخفى عمن ظلمهم ناسيا من بالسماء!

ارتكب جرما بحجة خير فلاقى الشر والهلاك!

سقط أرضا دموعه تتساقط مصطدمة بالأسفلت الصلب مماثلا صلابة القضبان التي قيّد خلفها.

مات من أخطأ وخالف ضميره لأجله.. مات من هلك شوقا للقياه.. مات من ضحى لأجله بثناياه.

نهض متعثرا يلقى المبنى نظرة أخيرة قبل أن يوليه ظهره وقد خسره هو الآخر تباعا مع خسارة كل ما يملك بمعركة علم نهايتها منذ بدايتها لكنه تجاهلها لأجل من هجره.

سار خطوات بطيئة تسارعت رويدا حتى عادت للركض يزيل دموعه عنيفا واحتدت قسماته رافضا الضعف عازما عما هو جديد متناسيا القديم.

أسبلت عينيها ببراءة متلفتة لشقيقتها بابتسامة جانبية تحمل بعض الاستفزاز والمشاكسة:

- كم صورة أخذتي بتأملك؟!

زفرت "بتول" يائسة وجمدت قسمات وجهها كأختها تنم على الشرود كأنهما تائهتان ببحور هائجة غاصا تحت أمواجها ينتظران أياد لانتشالهما.

مرت دقائق وهما على حالهما حتى انتفضتا لصوت طرق عنيف أجفلهما.

ارتدت "بتول" حجابها وفتحت الباب في رفق تضاد مع عنف دفع الطارق له. تقهقرت شاهقة بارتياب سرعان ما تحولت لصدمة.

تنقلت النظر بينهم يقفون أمامها: من ملامحه مبهمة ومن غاضبة ومن باكية ومن متوعدة!

ابتلعت "بتول" ريقها في توتر داعية أن تتخفى شقيقتها بغرفتها لحين خروج من لا تعلم سبب حضورهم. تضاعف خوفها والعائلة تدفعها يدلفون للداخل. تبعتهم محاولة إرداعهم لكن باءت محاولاتها فشلا ما إن وصلوا لمخاوفها.

اشرأبت لترى الطارق فأخفقت. ثوان قليلة وجحظت عيناها تراهم أمامها.

كل ما مضي حضر. كلٌ عيناه لامعة جراء الاشتعال يرون ما مروا به أمامهم والماضي تجسد بحاضرهم فتجمعت أيقونات الألم.

لم تهتم بأي أحد سواه هو المراد ندمه لفعلته.

تلاقت دموعها بعينيها تمثل أمامه. أطبق "مهران" جفنيه قاطعا التواصل بينهما ففُكّ أسر "بلقيس" التي مالت برأسها تجاه الآخر مقهقهة في سخرية وشكوكها تمكث أمامها فباتت يقينا.

لم يقل صدمة عنها وروحه تسلب رويدا رويدا. ظنونه تأكد منها وها هي تمثل أمامه. من منحها الحياة وشجعها على الانتقام كانت السكين الأول المهدد لاستقرار عائلته.

توقف العالم ساهمين ببعضهما متجاهلين ما يدور والذهول هو ما رسم على وجهيهما. أكان العالم صغيرا بالقدر الكافي لأن يلقيهما القدر داخل بيت واحد متمسكين بخصوصيتهما غافلين أنها موحدة بينهما!

لم يتوقف الكون عليهما فقط فنرى الزهرة تطالع "مهران" في خزي.

كانت المواجهة أصعب مما يتخيل. عاد ببصره للأرض مرتعشا كمن صعق لا يتحمل التطلع لمن خدعته وكذبت عليه خالقة شخصية وهمية تعلق بها فألقته داعسة إياه تحت قدميها.

لاحظت "بتول" الاشمئزاز بعينيه كأنه يتقزز رؤيتها. أدركت تعري مخططاتهما بعدما دعت ألا يتعرفا على شقيقتها لكن تلك القسمات والتعابير الواضحة عليهم تجزم إدراكهم لعبتهما السخيفة.

تطلعت "فريال" للأجواء منكمشة الوجه باكية في خزي من فعلتها وصدمة ممن تراها أمامها.

راقبت "أمينة" الأوضاع بعيون صقر تجهل مبتغاها.

تحرك وجهيهما بنفس اللحظة يعاودان النظر لبعضهما لتصل لمسامعهم ضحكة "مهران" الساخرة قائلا:

- عدتي "بلقيس"!

ازدردت ريقها ولم تقل سخرية عنه مجيبة:

- لم أعد "مهران".. بل تجددت! أزلت ضعفي واستبدلته قوتي.
- بل استبدلته بغبائك وجبروتك.. أراكي تطبعتِ به!

لم يُلزم بذكر اسمه فكل يحفظه عن ظاهر قلب. اهتاجت أنفاسها في تأقة تبغض ذكراه. احتدت عيناها تصرخ به ولم تكد تكمل تعنيفها حتى أوقفتها صيحة "أمينة":

- اصمتي!

خرجت عن صمتها تتحرك بمقعدها صوبها. أزاحت ابنها لتبقى محله تطالعها في خزي وحزن مردفة:

- لمَ فعلتي ذلك "بلقيس"؟! يشهد الله أن مقامك كان مقام ابنتي.

ثقلت الهموم عاتقها فرفعت كفيها تمسك شعرها المجعد الكثيف عنيفا وصدح صوتها الباكي محررة الدموع من قيدها:

- ابنك السبب. هو من دفعني لقتله ومن ثم.. رفض أن يلازمني. تركني بالسجن أتعفن وهرب هو.
- لم أهرب..
- اخرس "مهران"

صرخت بابنها مقاطعة دفاعه تعاود النظر لمن ظهر ضعفها فعلا نحيبها:

- لم يفعل "بلقيس". لقد أعطى المحامي أتعابه وتركك دون إرادته لكن لم يتخلى عنك.
- بلى.. فعل.. لو ظل جواري.. لو أنه أعطاه كامل أمواله لما سجنت خلف القضبان المتسخة.

عقد مهران حاجبيه متعجبا لتزيل "بلقيس" جهلهما بحديثها الهامس الضعيف تعيد عليهم ما قاله ذاك معدوم الضمير. حلّت الصدمة من قساوة قلبه وركضه خلف المال نافضا روحها عنه فتعفنت بلا ذنب.

- تخلى عني.. ولن أشفع له.
- وماذا ستفعلين؟!

قالها "قاسم" في حدة تخالف قلبه المكدوم لبكائها. تطلعت إليه ولسانها عُقد غير قادرة النطق وكأنه أخرسها بمجرد النظر له.

شاركت "فريال" الحديث بشهقات خافتة هاتفة:

- كان مرغما "بلقيس".. لم يتركك إلا بعدما أدى واجبه.. لا ذنب لنا بما فعله ذلك المحامي.

صخبت ضحكات "بلقيس" قبل أن تُبدَّل بالنحيب. جثت أرضا ومال جسدها فستر شعرها وجهها المختنق.

جلست "بتول" جوارها تشاركها البكاء وكفها يربت على ظهر شقيقتها. ضعف شقيقتها كان كافيا لإرغامها على الشعور بمعاناتها فأعطتها العذر بثأرها دون التفكير للأبرياء أمامها.

بللت "أمينة" شفتها السفلى تأسر دموعها وقد حل الشرود عليها وبدأت حكايتها تخبر الجالستين أمامها ما حدث بالماضي وأجبرهما تركها.

فُض ما بجعبتها فعلَى الذهول وجهي الشابتين. قطع الصمت تهدج "بلقيس" بقولها:

- مهما حدث فلا شيء يغفر فعلته.

أردفت "أمينة" بعقلانية ودهاء:

- وما نهاية انتقامك "بلقيس"؟ أتظنين عندما تدسين أختك بيننا ستدمريننا؟! أم أن تدفعي لغريب أن يخدعنا فسيزول بأسنا؟! مهما فعلتي فلن تستفيدي شيئا خاصة بعدما كُشف أمرك. لكن.. لازالت أمامك فرصة.

تبادلت الشقيقتان النظرات المشدوهة. تعلم صحة حديثها لكن جرحها يرفض السير خلفه.

استكملت حديثها:

- أقصد أن تبتعدي عنا وتحيين ما حرمت منه. منزل ضخم وأموال هائلة تكفيكِ أنتِ وشقيقتك.
- لن يلتئم جرحى بالأموال.
- وكأن حركاتك البلهاء من ستلئمها؟! أفيقي "بلقيس" ليست صفقة أو اثنين أو حتى مئة من ستضعفنا. إن خسرنا شركتنا فمعنا أموال تكفي الحياة سنوات قادمة دون عناء. في النهاية أنتِ من ستخسرين وإرثك لن تناليه بسهولة وتعلمين ذلك جيدا. لكن إن قبلتِ بمال وفير فلك حياة جديدة بعيدا عنا.

تهدل كتفاها وارتعدت أوصالها تدرس كل حرف جيدا قبل أن تأخذ قرارها.

نعم كامل الحق معها. لو قضت سنوات أخرى فلن تصل بهم لحالها وألمها. لن تفعل شيئا سوى القضاء على بقية عمرها.

لحظات بسيطة كانت سنواتا طويلة و"بلقيس" تخترقهم بنظراتها.

تراه ينظر لشقيقتها المخفضة رأسها وكأنه يعاتبها!

ترى الآخر يرمقها كمن يتهمها!

تراها تبكي في صمت لا تقدر رفع أنظارها كمن أعماها ثوب الخزي.

وأخيرا تراها تتطلع إليها متأهبة لقرارها.

أخذت نفسا عميقا وبرّدت البعض من نيرانها. ابتسم جانب فمها تحيك لعبة جديدة داخلها!

تنفست الصعداء ناهضة عن مجلسها تقف على قدميها المرتعشة رافعة رأسها في كبرياء. كلمة واحدة جعلت الجفون تنطبق بمشاعر مختلفة وأحاسيس مبعثرة.

- موافقة.

أسدل الستار على حيوات ظنوا نقصانها اكتمالا لها.

تمت بحمد الله.. حتى الآن.

صفحة الكاتبة على الفيس بوك للتواصل معها والإعلان عن كل جديد:

https://www.facebook.com/WriterEsraaAbdElmoneim/